طرق في الاستدلال التركيبيّ الآليّ
لدى سيبويه والجرجانيّ

علي بن معيوف المعيوف
كلية الآداب بجامعة الملك سعود

تتعدد طرق الاستدلال اللغوي وأدواته التي يستخدمها من يتصدى لدراسة اللغة، فمنها ما يكونُ لغويًّا صرفًا، كالاستدلال على تأنيث كلمة (شمس) في العربية باتصال تاء التأنيث الساكنة بالفعل المسند إليها نحو: (طلعت الشمس)، أو باستخدام اسم الإشارة للمؤنث عند الإشارة إليها نحو: (هذه الشمس)؛ فهذا الاستدلال استدلال لغويّ صِرفٌ يعتَمِدُ على الظاهرة اللغوية نفسها التي تعاملت فيها اللغة مع هذه الكلمة التي لا تحملُ علامة التأنيث، ولا تدلُّ على مؤنث حقيقي في الواقع – تعاملاً يُشبه تعاملها مع الكلمة التي ترد فيها علامة تأنيث لغوية، أو تكون دالة على مؤنَّث حقيقيّ في الواقع. ومنها ما يكون منطقيًّا، كالاستدلال على كون قسمة الكلم في النحو العربي ثلاثيةً باستدلال منطقي يدور بين الإثبات والنفي في كون الكلمة تدلُّ على معنى أو لا تدلّ...، جاء في المقرّب: "والدليلُ على أنّ أجزاء الكلام هذه الثلاثة خاصة أنّ اللفظ الذي هو جزء من كلام إمّا أن يدل على معنى أو لا يدل، وباطلٌ ألا يدلّ؛ فإنّ ذلك عيب، وإذا دلّ فإمّا أن يدل على معنى في نفسه أو في غيره لا في نفسه، فإن دل على معنى في غيره فهو حرف. وإن دلّ على معنى في نفسه فإمّا أن يتعرَّض ببنيته للزمان أو لا يتعرّض، فإن تعرَّض فهو فعلٌ، وإن لم يتعرّض فهو اسمٌ. فالأجزاءُ إذن منحصِرَةٌ في هذه الثلاثة"(١). ومنها ما يكونُ استدلالا يمكنُ وصفه بأنه آليّ الإجراء، والذي أعنيه هنا بـ(آليّ الإجراء) هو أن يستخدم مَن يتصدى لدراسة اللغة طريقةً آليةً (رياضية) في الاستدلال تشبه استخدامَ عمليةٍ حسابيةٍ: كعملية الجمع، أو الطرح، أو الضرب، أو القسمة، إذ العمليات الرياضية عمليات آلية منضبطة تؤدي

(١) أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي بن عصفور الحضرمي الإشبيلي، المقرّب زمعه مُثُل المقرّب، تحقيق وتعليق ودراسة: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوَّض دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ص ٦٨.

إلى نتائج رياضية منضبطة مهما كانت الأرقام المستخدمة فيها. ومن أمثلة الاستدلال الآلي في دراسة اللغة استخدام (الاستبدال)، وذلك بأن يعمَد دارس اللغة إلى عنصر أو مجموع عناصر من مكونات جملةٍ يحلِّلُها فـ(يفك) هذا العنصر أو مجموع العناصر ويُخرجها من تركيب الجملة ثم يضع في موضع العنصر المستَبعَد أو مجموع العناصر المستَبعَدَة عنصراً آخر أو مجموع عناصر أخرى للوصول إلى نتيجة ما. من ذلك ما فعله سيبويه في تحليله لجملة (قد عرفت أنك منطلقٌ) فقال: "ألا ترى أنّك تقولُ: قد عرفتُ أنَّك منطلقٌ، فأنّك في موضع اسمٍ منصوب، كأنّك قلت: قد عرفتُ ذاك"(١)، إذ استبدل سيبويه الاسم المفرد (ذاك) بمجموع العناصر اللغوية من (أنَّ) واسمها وخبرها في جملة (قد عرفتُ أنَّك منطلقٌ)؛ ليتبيَّنَ بذلك أنَّ مجموع العناصر اللغوية من الحرف المصدري وصلته (أنك منطلقٌ) تقعُ في الموضع نفسه الذي يقعُ فيه الاسمُ المفرد (ذاك)، وتؤدي الوظيفة النحوية نفسها في البناء التركيبي للجملة التي جاءت فيها وهي وظيفة المفعول به؛ فهذه الطريقة كما تبدو آلية (رياضية) فيها فكٌّ وتركيب تجريبيّ للتثبُّت من صحة التحليل النحويّ، أو للاستدلال على تلك الصحّة.

وتسعى هذه الورقة إلى الكشف عن الطرق الآلية التي استخدمها سيبويه في دراسة تركيب الجملة للاستدلال على الوظيفة النحوية التي يؤديها اسمٌ ما أو مجموع عناصر لغوية في تركيب الجملة التي يحلِّلُها، والوقوف على الطرق الآلية التي استخدمها الجرجاني للاستدلال في نظرية النظم في كتابه (دلائل الإعجاز)، فلعلّ الكشف عن تلك الطرق يضيء شيئًا من مَواطن البحث فيما أنتجه اللغويون العرب، ويضيء مساحةً في النظرية اللغوية العربية، ويعطينا أدوات آلية نستطيع

(١) سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط ١، د. ت، ٣: ١١٩-١٢٠.

استخدامها للاستدلال عند الحاجة إليها أثناء التحليل اللغوي.

وستكون غايةُ الباحث في هذه الورقة الكشفَ عن طرق الاستدلال التي تبدو له آليةً، واستخدمها العالمان الجليلان، دون أن يكون له هدف آخر مباشر سوى الكشف عن الطرق الآلية باعتبارها طرق استدلال، والتركيز على طريقة الاستدلال نفسها بوصفها عملية.

والسبب في اختيار المدونتين (كتاب سيبويه، ودلائل الإعجاز) هو ما لفَت انتباهي أثناء قراءتي للكتاب ووقوفي على عدد من طرق الاستدلال الآلية التي وجدت الجرجاني يستخدم بعضها في كتابه دلائل الإعجاز. كما أنَّ المَواطِن التي استخدم فيها سيبويه الطرق الآلية للاستدلال (وهي تعرُّف الوظيفة النحوية أو بيانها) في داخل التركيب المستعمَل يُمكن تصنيفها تحت ما يُسمَّى (اللفظ)، إذ كان استدلاله نحويًّا صرفًا، أمّا الجرجاني فقد استخدم الاستدلال الآلي في أغلب ما وقفت عليه لإثبات التغيُّر الدلالي أو التنوع الدلالي في إطار نظرية النظم. وهذا الأمر يُعطي مؤشرًا مهمًا، وهو أنّ الاستدلال الآلي يمكن استخدامه بانضباط في أغراض مختلفة، ويعطي نتائج يطمئنُ إليها الدارس على الرغم من اختلاف الغرض من الدراسة، أو اختلاف حقل الدراسة.

والمراد بالطرق الآلية هنا هوكلّ طريقة عمليّة تجريبية يقومُ بها دارس اللغة ويمكن استخدامها في كلِّ مرة بالكفاءة نفسها فتؤدي إلى نتيجةٍ مماثلة.

وتبدأ هذه الورقة برصد الطرق الآلية الإجرائية التي استعملها سيبويه في استدلاله التركيبي وتحليلها، ثم رصد الطرق الآلية الإجرائية التي استعملها الجرجاني في استدلاله التركيبيّ وتحليلها، ثم تختم بتسجيل ما يلحظه الباحث في استخدام الطرق الآلية الإجرائية بين سيبويه والجرجاني.

وتبدأ هذه الورقة بعرض الطرق الآلية المتشابهة التي استخدمها سيبويه

والجرجاني كلاهما، ثم الطرق الآلية التي استخدمها سيبويه ولم أقف عليها لدى الجرجاني، فالطرق الآلية التي استخدمها الجرجاني ولم أقف عليها لدى سيبويه، ثم أدون ملحوظات في استخدام هذه الطرق بين العالمين الجليلين.

الطرق الآلية المتشابهة التي استخدمها سيبويه[1] والجرجاني في الاستدلال التركيبيّ:

١- الاستبدال:

١-١ الاستبدال لدى سيبويه:

من الطرق الآلية التي استعملها سيبويه للاستدلال التركيبي (الاستبدالُ)[2]، فكان يستخدمه لبيان الموضع أو للاستدلال عليه، وذلك بأن يأتي إلى الجملة التي يُحلِّلُها، فيعمَدَ إلى موضعٍ ما في البناء التركيبيّ لتلك الجملةِ وقَعَ فيه اسمٌ مفردٌ، أو وقع فيه مجموعُ عناصر لغويةٍ وأدت وظيفته النحوية في الجملة التي يُحلِّلُها، فيُزيل ذلك الاسمَ أو مجموعَ تلك العناصر اللغوية من ذلك الموضِع، ويأتي باسمٍ

(١) جاء في أطروحتي للدكتوراه (نظرية الموضع في كتاب سيبويه) مبحثٌ كاملٌ عنوانه (طرق اتخذها سيبويه لبيان الموضع أو للاستدلال عليه) في ٢٨ صفحةً، وما جاء في ذلك المبحث أعمّ مما في هذا المبحث، وهو مختلفٌ عنه غايةً وموضوعًا. انظر مخطوط أطروحة الدكتوراه (نظرية الموضع في كتاب سيبويه) ص ٢٦٥-٢٩٢. وقد جاءت الطرق الآلية الإجرائية التي استعملها سيبويه في الاستدلال على الموضع أو بيانه بوصفها جزءاً من ذلك المبحث دون تخصيصها بشيء ما، وهي هنا مخصوصة بوصفها طرقًا آلية إجرائية في الاستدلال التركيبيّ، كما أنها مادة للمقارنة مع الطرق الآلية الإجرائية التي استخدمها الجرجاني في نظرية النظم.

(٢) ممن سبقَ إلى الإشارة إلى أنّ سيبويه قد استعمَل الاستبدال في الكتاب: محمود نحلة في بحثين له، ومحمود سليمان ياقوت، ولم يُسمِه ياقوت (الاستبدال)، بل سماه (الحذف والإحلال)، انظر: نحلة، محمود أحمد، الاسم والصفة في النحو العربيّ والدراسات الأوربيّة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤م، ص ١٧، و النهج الاستبدالي في كتاب سيبويه، فولفديترش فيشر، دراسات عربية وساميّة مهداة من أصدقائه وتلاميذه بالجامعات المصرية، مركز اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ١١٥ وما بعدها. و ياقوت، محمود سليمان، التراكيب غير الصحيحة نحويًّا في الكتاب لسيبويه دراسة لغوية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الثانية، د. ت. ص ٥٩، ٢٩٣.

مفردٍ فيضعه في الموضع نفسه الذي أزالَ منه ما سبق؛ لتتَبيَّنَ بذلك الوظيفةُ النحوية التي يؤديها الاسمُ المُستَبدَلُ أو مجموعُ العناصر اللغوية المُستبدَلة في الجملة التي يُحلِّلُها.

فمن استبدال اسمٍ مفردٍ باسمٍ مفردٍ في الموضع نفسه قوله: "وتقولُ: سيْرَ عليه فرسخان يومين؛ لأنّك شغَلتَ الفعلَ بالفرسخين، فصار كقولك: سيرَ عليه بعيرُك يومين"(١). إذ يستبدلُ سيبويه الاسمَ (بعير) بـ(فرسخان)، وهو بذلك يُزيلُ اسمًا مفردًا من البناء التركيبيّ في الجملة التي يُحلِّلُها ويأتي باسمٍ آخر يضعُه في موضعه ليتبيَّن بهذا العمل أنَّ الاسمين المستبدَل والمستبدَل به يقعان في الموضع نفسه في البناء التركيبيّ للجملة، ويؤديان الوظيفة النحوية نفسها في الجملة التي يُحلِّلُها سيبويه، وهي وظيفة نائب الفاعل.

ومن استبدال اسمٍ مفردٍ بمجموع عناصر لغوية استبداله اسمًا مفردًا بحرفٍ مصدريٍّ مع جميع العناصر اللغوية التي في صِلَتِه، كقوله: "تقولُ: أنْ تأتيَني خيرٌ لك، كأنَّك قُلتَ: الإتيانُ خيرٌ لك"(٢). وقوله: "ألا ترى أنّك تقولُ: قد عرفتُ أنَّك منطلقٌ، فأنّك في موضع اسمٍ منصوب، كأنّك قلت: قد عرفتُ ذاك"(٣). إذ استبدل سيبويه الاسم المفردَ (الإتيان) بمجموع العناصر اللغوية من الحرف المصدري والفعل والفاعل والمفعول به (أن تأتيني) في جملة (أن تأتيني خيرٌ لك) ليتبيَّنَ بذلك أن مجموع العناصر اللغوية من الحرف المصدري وصلته تقعُ في الموضع نفسه الذي يقعُ فيه الاسمُ المفرد (الإتيان) الذي جاء به سيبويه في مكان تلك العناصر في البناء التركيبيّ للجملة التي يُحلِّلُها، وتؤدي الوظيفة النحوية

(١) سيبويه، الكتاب، ١: ٢٢٣. وانظر في مثل ذلك أيضًا: سيبويه، الكتاب، ١: ٢٢٩.

(٢) سيبويه، الكتاب، ٣: ١٥٣.

(٣) سيبويه، الكتاب، ٣: ١١٩-١٢٠. وانظر أمثلةً أخرى لذلك: سيبويه، الكتاب، ١: ١٣١، ١٥٥، ١٥٦، ٢: ٣٢٩، ٣: ٦، ١٢٠-١٢١، ١٢٢، ١٤٣، ١٥٤، ٢٦١.

نفسها التي يؤديها الاسمُ المفرد (الإتيان) وهي وظيفة المبتدأ. كما استبدل الاسم المفرد (ذاك) بمجموع العناصر اللغوية من (أنَّ) واسمها وخبرها في جملة (قد عرفتُ أنَّك منطلقٌ)؛ ليتبيَّنَ بذلك أنَّ مجموع العناصر اللغوية من الحرف المصدري وصلته تقعُ في الموضع نفسه الذي يقعُ فيه الاسمُ المفرد (ذاك)، وتؤدي الوظيفة النحوية نفسها في البناء التركيبي للجملة التي جاءت فيها وهي وظيفة المفعول به.

ومن استبدال اسمٍ مفردٍ بمجموع عناصر لغوية استبداله الاسم المفرد بكامل عناصر الجملة الفعلية في قوله: "كما أنَّ قولك: عبدُ الله لقيتُه، يصيرُ (لقيتُه) فيه بمنزلة الاسم، كأنَّك قلتَ: عبدُ الله منطلقٌ"(١). إذ يستبدل سيبويه الاسمَ المفرد (منطلق) بجميع عناصر الجملة الفعلية (لقيتُه)؛ ليُبين بذلك أنَّ الجملة الفعلية (لقيتُه) بكامل عناصرها تقعُ في الموضع نفسه الذي يقعُ فيه الاسمُ المفرد (منطلق) وهو موضع الخبر، وأنَّها تؤدي الوظيفة النحوية نفسها التي يؤديها الاسمُ (منطلق) في الجملة التي يُحلِّلُها، وليُبيِّنَ أنَّ الاسم المرفوع في صدر الجملة الكبرى الاسميّة لا يؤدي أي وظيفة نحوية في البناء التركيبيّ للجملة الصغرى الفعلية الواقعة في موضع الخبر.

ويُلحَظُ هنا أنَّ الاسم المفرد الذي يستبدلُه سيبويه بمجموع العناصر اللغوية قد يكونُ اسمًا معربًا تظهرُ فيه علامةُ إعراب الموضع الذي يقعُ فيه كما في (الإتيانُ خيرٌ لك)، و(عبدُ الله منطلقٌ)، وقد يكونُ اسمًا مبنيًّا كما في (قد عرفتُ ذاك).

وتبدو الفائدة في استبدال اسمٍ مفرد بمجموع عناصر لغوية جليّة في بيان أنَّ مجموع تلك العناصر تقع في الموضع نفسه الذي يقع فيه الاسم المفرد في البناء

(١) سيبويه، الكتاب، ٢: ٨٩. وانظر في ذلك أيضًا: سيبويه، الكتاب، ١: ٨١، ٨٤، ٨٧، ٩٧، ١٠٥-١٠٦، ٣٩٠، ٢: ٣١٧، ٣: ٨٥، ٨٨، ٩٨.

التركيبيّ المجرّد للجملة، وتؤدي الوظيفة النحوية نفسها في تأليف الكلام؛ لكنّه قد يُتساءلُ عن الفائدة من استبدال اسمٍ مفردٍ باسمٍ مفرد في بيان ذلك، ولا سيّما إذا كان الاسم المفرد المستبدل به معربًا تظهرُ فيه علامة إعراب الموضع الذي يقعُ فيه.

ويظهرُ لي أنَّ الجملَ التي استبدل فيها سيبويه اسمًا مفردًا باسمٍ مفرد كانت الفائدة فيها تُضاهي الفائدة في استبدال اسمٍ مفردٍ بمجموع عناصر لغوية. من ذلك استبدالُه الاسمَ الظاهرَ المعربَ بعلامات إعراب ظاهرة (الأب) و(الأخ) بضمير الفصل لبيان أنَّ هذا الضمير يؤدي وظيفة نحوية في استعمال بعض العرب في الجملة التي يردُ فيها، إذ قال بعد أن أوردَ أمثلة كثيرة لضمير الفصل في (باب ما يكونُ فيه هُوَ وأنْتَ وأنا ونَحْنُ وأخواتُهنَّ فصلاً): "وقد جعلَ ناسٌ كثيرٌ من العرب (هُوَ) وأخواتها في هذا الباب بمنزلة اسمٍ مبتدأ وما بعدَه مبنيٌّ عليه، فكأنَّك تقولُ: أظنُّ زيدًا أبوه خيرٌ منه، ووجدتُ عمرًا أخوه خيرٌ منه"(١). ففي هذا النص يستبدل سيبويه الاسم (أبو) في الجملة الأولى، و(أخو) في الجملة الثانية بالضمير (هو) ليُبيِّنَ بذلك أنَّ الضمير (هو) يؤدي وظيفة نحوية في استعمال بعض العرب وهي وظيفة المبتدأ كما يؤديها الاسمُ الظاهر (الأب) أو (الأخ) أو غيرهما من الأسماء الظاهرة، وهذا الاستبدال ظاهر الفائدة في بيان الموضع الذي يقعُ فيه ضمير الفصل في استعمال بعض العرب، فالاسم الذي أحلَّه سيبويه في موضع الضمير في تلك اللغة لا يُستعمل فصلاً ألبتة، فتبيَّنَ به أنَّ الضمير (الذي يجعله بعضُ العرب فصلاً لا يؤدي وظيفة نحوية في الجملة التي يردُ فيها) له موضعٌ يقعُ فيه ويؤدي وظيفته النحوية في الجملة التي يردُ فيها في استعمال عربٍ آخرين.

ومن ذلك أيضًا استبدال سيبويه اسمًا مفردًا ظاهرًا تظهر فيه علامات الإعراب

(١) سيبويه، الكتاب، ٢: ٣٩٢.

باسمٍ مفردٍ ظاهر تظهرُ فيه علامات الإعراب، وما وقفتُ عليه من هذا الاستبدال يغلبُ فيه أن يكون الاسمُ المستبدلُ به دالاً على ظرفية أو مصدراً كما في النصين اللذين في صدر الكلام عن هذه الطريقة الآلية (الاستبدال)، وهما قوله: "وتقولُ: سيْرَ عليه فرسخان يومين؛ لأنّك شغَلتَ الفعلَ بالفرسخين، فصار كقولك: سيرَ عليه بعيرُك يومين"(١). وقوله: "وتقولُ: سيرَ عليه سيرتان أيَّما سيرٍ، كأنَّك قلت: سيرَ عليه بعيرُك أيَّما سيرٍ"(٢). ويبدو لي أنّ سيبويه كانَ يريدُ بهذا الاستبدال أنْ يظهر الفرق بين الاسم من حيثُ دلالته ونوعُه، والموضع الذي يقعُ فيه هذا الاسم فيؤدي وظيفته النحوية في الجملة التي وردَ فيها؛ لذلك غلَبَ كونُ الاسمِ الظاهرِ المعربِ بعلامات إعراب ظاهرة الذي يستبدلُ به سيبويه اسماً آخر معربًا بعلامات إعراب ظاهرة، غلبَ كونه دالاً على ظرفية أو مصدراً. فالاسم الدال على ظرفية من حيثُ هو نوعٌ من أنواع الاسم يُمكنُ أن يقعَ في موضعٍ آخر غير الظرف / الموضع في البناء التركيبيّ المجرّد للجملة في العربية(٣)، كما أنَّ المصدرَ الذي هو نوعٌ من أنواع الاسم يُمكنُ أن يقعَ في موضعٍ آخر غير موضع المفعول المطلق أو المفعول لأجله في البناء التركيبيّ المجرّد؛ لذا يأتي سيبويه باسمٍ ليس دالا على ظرفية ولا هو مصدر، في الغالب، يستبدله بالظرف أو المصدر ليتبيّن أنَّ الاسمَ الدال على الظرفية لا يؤدي وظيفة الظرف، وان المصدر لا يؤدي وظيفة المفعول المطلق في الجملة التي وردَ فيها كما لا يؤدي إحدى هاتين الوظيفتين الاسمُ المستبدلُ الذي قد يكونُ علمًا(٤) أو اسم جنس كاستبداله البعير بالفرسخين أو بالسيرتين أعلاه.

(١) سيبويه، الكتاب، ١: ٢٢٣.

(٢) سيبويه، الكتاب، ١: ٢٢٩. وانظر كذلك: سيبويه، الكتاب، ١: ١١٧، ٤٠٦، ٢: ١٣٣.

(٣) عبر بعض النحاة بعد سيبويه عن ذلك بخروج الظرف عن الظرفية، وفي الأطروحة (نظرية الموضع في كتاب سيبويه) تفريق بين كون الاسم دالاً على زمان أو مكان وكون الظرف موضعًا (وظيفة نحوية في تركيب الجملة)، انظر (نظرية الموضع في كتاب سيبويه) ص ١٣٥-١٣٩.

(٤) انظر في ذلك: سيبويه، الكتاب، ١: ٢٢٩، ٢: ١٣٣.

ويؤيّدُ هذا الفهمَ قول سيبويه: "ومما يَسبِقُ فيه الرفعُ من المصادرِ لأنَّه يُرادُ به أنْ يكونَ في موضع غير المصدَر قولُه: قد خيفَ منه خوفٌ، وقد قيلَ في ذلك قولٌ؛ إنَّما يُريدُ: قد خيفَ منهُ أمرٌ أو شيءٌ، وقد قيلَ في ذلك خيرٌ أو شرٌّ"(١). إذ يُفهمُ من هذا النص تفريق سيبويه بين المصدر / الموضع، وهو يريدُ به المفعول المطلق، إذ يُسمي سيبويه المفعول المطلق مصدراً(٢)، والمصدر النوع من الاسم الذي يُعرفُ بالمصدر كالصَّوْم والعِلْم ونحو ذلك من الأسماء. فالذي أفهمه من هذا النص هو أنَّ سيبويه يريدُ بـ(المصادر) بالجمع في قوله: "ومما يَسبِقُ فيه الرفعُ من المصادرِ" النوعَ من الاسم الذي يُطلقُ عليه (المصدر)، ويُريدُ بـ(المصدر) بالإفراد في قوله: "لأنَّه يُرادُ به أنْ يكونَ في موضع غير المصدَر" الموضعَ في البناء التركيبيّ المجرَّد وهو موضع (المفعول المطلق)؛ ويؤيدُ ذلك أنَّ سيبويه يتكلَّم عن مصادر (من حيثُ نوع الاسم) وقعت في موضع نائب الفاعل، فكانَت إحدى سبله لبيان أن المصدر / الاسم لم يقع في موضع المصدر / الموضع (وهو المفعول المطلق) أنْ جاء باسم غير مصدر وهو (أمر) أو (شيء) ووضعه في الموضع نفسه الذي وقعَ فيه المصدر / الاسم (خوف) في: (قد خيفَ منه خوفٌ)؛ ليُبيّن بذلك أنَّ (خوف) يؤدي وظيفة نائب الفاعل كما يؤديها الاسم (أمر) أو (شيء) لو قيل: خيف منه أمرٌ، أو خيف منه شيءٌ.

ويؤيّدُ هذا الفهمَ قولُ السيرافي في شرحه كلام سيبويه السابق "ومما يَسبِقُ فيه الرفعُ من المصادرِ لأنَّه يُرادُ به أنْ يكونَ في موضع غير المصدَر": "يعني أنَّه قد يجيءُ على لفظ المصدر المفعولُ والفاعلُ، إذا كان كذلك عاملناه مُعاملةَ المفعول

(١) سيبويه، الكتاب، ١: ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) انظر في ذلك: القوزي، عوض، المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، الرياض، جامعة الرياض، ط١، ١٤٠١هـ١٩٨١م، ص ١٣٩.

لا المصدر"(١). وقوله في مجيء بعض الأسماء الدالة على الظرفية مؤدية وظائف اسمية غير وظيفة الظرف: "أن تعلَمَ أن في الظروف ما يجوزُ أن تستعمَل اسمًا كزيدٍ وعمرٍو، كقولك: صمت اليومَ، على مثل: ضربتُ زيدًا، وتجعل اليومَ مفعولاً كزيد"(٢).

ويُلحَظُ أنَّ سيبويه قد يُصرِّحُ بذكر (الموضع) في بعض النصوص التي يستعمل فيها هذه الطريقة (الاستبدال) لبيان الموضع كما سبقَ في بعض النصوص أعلاه، وكقوله في (أعبدُ الله ضربت أخاه): "وذلك أنَّه ابتدأ عبد الله، وجعلَ الفعلَ في موضع المبنيّ عليه، فكأنَّه قال: أعبدُ الله أخوك؟"(٣). وقوله: "تقولُ: ظننتُ أنَّه منطلقٌ، فظننتُ عاملةٌ، كأنَّك قلت: ظننتُ ذاك. وكذلك: وددتُ أنَّه ذاهبٌ؛ لأنَّ هذا في موضع ذاك إذا قلتَ: وددتُ ذاك"(٤).

وقبلَ أنْ أختمَ الكلام عن الاستبدال أودُّ أن أُشير إلى نصٍّ فريد جاء في الكتاب واستُعمِلَت فيه هذه الطريقة الآلية الإجرائية (الاستبدال) لبيان الموضع، وهو: "تقولُ: كم مأخوذٌ بك، إذا أردتَ أن تجعلَ مأخوذًا بك في موضع (لك) إذا قلتَ: كم لك؛ لأنَّ (لك) لا تعمَلُ فيه (كم)، ولكنَّه مبنيٌّ عليها، كأنَّك قلتَ: كم رجلٍ لك، وإن كان المعنيان مختلفين؛ لأنَّ معنى (كم مأخوذٌ بك) غير معنى (كم رجلٍ لك)"(٥). إذ المعتادُ أن يستبدل سيبويه اسمًا مفردًا باسمٍ مفرد أو بمجموع عناصر تقعُ في موضع اسمٍ مفردٍ وتؤدي وظيفته النحوية في الجملة التي تردُ فيها،

(١) السيرافيّ، أبو سعيد الحسن بن عبد الله، شرح كتاب سيبويه، مخطوطة محفوظة بدار الكتب القومية، رقم ١٣٧ نحو، ش، ٢: ٤٤ أ.

(٢) السيرافي، شرح كتاب سيبويه، المخطوط، ٢: ٤٠ أ.

(٣) سيبويه، الكتاب، ١: ١٠٥، ١٠٦.

(٤) سيبويه، الكتاب، ٣: ١٢٠. وانظر في ذلك أيضًا: سيبويه، الكتاب، ١: ٨١، ٤٠٦، ٣: ٨٨، ٩٨، ١٢٢، ١٤٣.

(٥) سيبويه، الكتاب، ٢: ١٧٠.

وهذا هو الأولى نظريًّا؛ لأنَّ استبدالَ اسمٍ مفردٍ بمجموع عناصر لغوية واضحُ الأثر في بيان أن تلك العناصر المستبدل بها تشكِّلُ وحدةً لغويةً تؤدي وظيفة اسم مفردٍ في البناء التركيبيّ للجملة التي جاءت فيها. كما أنَّ المجيء باسمٍ مفردٍ معربٍ بعلامات إعرابٍ ظاهرة ووضعه في موضع اسمٍ مبنيّ أو في موضعٍ وقعَ فيه أكثر من عنصرٍ لغويٍّ يكونُ أظهر في بيان الموضع الذي وقعَ فيه الاسمُ المبنيّ أو مجموع تلك العناصر بسبب علامة الإعراب الظاهرة التي تُعدُّ أحد الأدلة على الموضع. والفريدُ في هذا النص الذي لم أقف في الكتاب على غيره أنَّ سيبويه يستبدلُ مجموع عناصر لغوية (حرف الجر والاسم: لك) باسمٍ مفردٍ معربٍ بعلامات إعرابٍ ظاهرة (مأخوذ)، في قوله: "تقولُ: كم مأخوذٌ بك، إذا أردتَ أن تجعلَ مأخوذًا بك في موضع (لك) إذا قلتَ: كم لك".

وعلى الرغم من غرابة هذا النص في هذه الطريقة (الاستبدال) فإنه يكمّل الصورة، ويزيد في تأكيد وجهة النظر هنا بأنَّ سيبويه استخدمَ (الاستبدال) بوصفه طريقة آلية يستدلّ بها على الوظيفة اللغوية، أو يعرّفها ويبيّنها بها للآخرين؛ إذ إنَّ مجيءَ سيبويه بحرف الجر اللام والضمير الواقع في موقع جرٍّ به (لك)، وذكرَه أنَّ الاسم المفرد (مأخوذ) في (كم مأخوذٌ بك) وقعَ في موضع (لك) في (كم لك) أي أنَّه وقعَ في موضع الخبر لا التمييز، يُفيدُ أنَّ المواضع في البناء التركيبيّ المجرَّد للجملة العربية كانت ظاهرة الوضوح له، وأنَّها كانت كالخطة الثابتة عنده، وأنَّ الاستبدال إنما كان آلةً إجرائية يقومُ بها بأن يُزيل اسمًا مفردًا وقع في موضعٍ ما ويأتي باسم آخر يضعه في الموضع نفسه، أو يُزيل مجموع عناصر لغوية تُشكِّلُ وحدة لغويةً واحدة تؤدي وظيفة اسمٍ مفرد في الجملة التي جاءت فيها، ويضعُ في موضعها اسمًا مفردًا؛ ليُبيّنَ أنَّ الموضعَ واحدٌ مهما اختلف الواقعُ فيه في الكلام المؤلَّف. وهذا الغرضُ من الاستبدال هو نفسه الذي جعلَ سيبويه يُزيلُ

الاسم المفرد (مأخوذ) في (كم مأخوذٌ بك) ويضع في موضعه الجار والمجرور (لك) في (كم لك)؛ ليُبيّنَ أن الموضع هو الخبر لا التمييز؛ لأنَّ (لك) لا تقع تمييزًا، في حين أنَّ الاسم المفرد النكرة (مأخوذ) ونحوه يُمكنُ أن يقعَ في هذا الموضع؛ لذا كان ذكرُه أنَّ مأخوذًا في موضع (لك) أوقعُ في بيان الموضع المراد بيانه وهو الخبر.

ويؤيدُ هذا الفهم تصريحُ سيبويه بأن (لك) لا تعملُ فيه (كم) أي أنَّه لا يقعُ تمييزًا لها، وهذا سبب اختياره مجموع العناصر اللغوية (لك) ليدلَّ به على موضع (مأخوذ) في (كم مأخوذٌ بك). كما يؤيدُ هذا الفهمَ قول السيرافيّ في شرحه كلام سيبويه أعلاه: "(كم مأخوذٌ بك) وتأويلُه: كم رجلاً مأخوذٌ بك، و(مأخوذٌ) خبر، ولو نصَبتَ مأخوذًا لم يتمّ الكلامُ واحتجتَ إلى خبر، إذا قلت: كم مأخوذًا بك، لم يتمّ حتى تقول: في الحبس، أو مُعاقبٌ، أو ما أشبَهَ ذلك"(١). وما يُفهمُ من قول أبي عليّ الفارسي في تعليقته على كلام سيبويه أعلاه: "قال أبو عليّ: أي لـمّا جازَ لك أن تقولَ في الخبر: كم لك، فلا تُعمِلُه في شيءٍ، ولم يكن قولك (لك) مما يجوزُ أن يعمل فيه (كم) جاز لما ذكرت بعده ما يعملُ فيه أن تجعلَه بمنزلة ما لم يعمَل فيه"(٢). إذ يُفيدُ كلامُ السيرافيّ بقاء احتمال نصب الاسم المفرد (مأخوذ) على التمييز؛ لأنَّ الاسم المفرد النكرة يقبل الوقوع في هذا الموضع، ويُفهمُ من كلام أبي عليّ أن استبدال سيبويه العناصر اللغوية (لك) بالاسم المفرد (مأخوذ) يُبينُ أنَّ الاسم المفرد (مأخوذ) يؤدي الوظيفة النحوية نفسها التي يؤديها حرف الجر (اللام) والاسم الواقع في موضع جرٍ به في: (كم لك).

وما مضى كلُّه يؤيّد أنّ (الاستبدال) الذي استخدمه سيبويه كانَ طريقةً آليةً يقوم بها النحويُّ أثناء التحليل، فيفك من التركيب كلمةً أو مجموع عناصر لغوية

(١) السيرافي، شرح كتاب سيبويه، المخطوط، ٣ : ٢٣ ب.

(٢) الفارسي، أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، التعليقة على كتاب سيبويه، تحقيق عوض بن حمد القوزي، القاهرة، مطبعة الأمانة، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ١ : ٣١٢.

ويضعُ في موضعها ما يؤدي الوظيفةَ النحوية نفسها للتثبُّت من صحّة التحليل، أو لتأكيد صحة ذلك التحليل للآخرين الذين يطّلعون عليه.

١-٢ الاستبدال لدى الجرجاني:

استخدم الجرجانيُّ (الاستبدال) في تحليله مستدلاً به على صحة ما يذهب إليه في نظرية النظم، إذ كان يستبدل كلمةً بأخرى في النص الذي يُحلِّله؛ ليبيّن مزية مجيء الكلمة المنتقاة في النص الأصلي على الأخرى التي يستبدلها بها في القيام بالغرض الذي استُعملت فيه. من ذلك قوله بعدَ أن بيّن أن الاسمَ يُستخدم لإثبات المعنى به من غير أن يقتضي التجدُّد، وأنّ الفعل يقتضي تجدُّدَ المعنى المثبَتِ به شيئًا بعد شيء، وأن اختيار أحدهما (الاسمَ أو الفعل) عند نظم الكلام مؤثِّرٌ في المعنى؛ فلا بد أن يتنبه له مؤلّفُ الكلام، وذلك في معرض حديثه عن الفرق بين الاسم والفعل في الاستعمال عند الإخبار بشيءٍ ما، قال: "وإن شئتَ أن تُحِسَّ الفرقَ بينهما من حيثُ يلطُفُ فتأمَّل هذا البيت:

لا يألَفُ الدرهمُ المضروبُ خرقتنا لكن يمرُّ عليها وهو مُنطلِقُ

هذا هو الحسن اللائقُ بالمعنى، ولو قلته بالفعل: (لكن يمرُّ عليها وهو ينطلقُ)، لَم يَحْسُن.

وإذا أردت أن تعتبره حيثُ لا يخفى أنَّ أحدَهما لا يصلح في موضع صاحبه فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨] فإنَّ أحداً لا يشكُّ في امتناع الفعل ههنا، وأنَّ قولَنا: كلبُهم يبسطُ ذراعيه، لا يؤدي الغرضَ. وليسَ ذلك إلا لأنَّ الفعلَ يقتضي مزاولةً وتجدُّد الصفة في الوقت، ويقتضي الاسمُ ثبوتَ الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولةٌ وتزجيةُ فعلٍ ومعنى يحدثُ شيئًا فشيئًا. ولا فرقَ بينَ "وكلبهم باسطٌ" وبينَ أن يقول: (وكلبهم واحدٌ) مثلاً، في أنك لا تُثبتُ مزاولةً، ولا تجعلُ الكلبَ يفعلُ شيئًا، بل تُثبته بصفةٍ هو عليها؛

فالغرضُ إذن هو تأدية هيئة الكلب"(١) فالجرجانيُّ في النص السابق عملَ الآتي:

أتى إلى الكلام المؤلّف: (لكن يمرُّ عليها وهو منطلقُ) في البيت، واستبدل الفعل (ينطلقُ) بالاسم (منطلق)، ليُصبح الكلام: (لكن يمرُّ عليها وهو ينطلقُ). ثمّ رغب في زيادة تأكيد ما يراه، فاستدلَّ بالجملة في الآية الكريمة: ﴿**وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ**﴾ [الكهف: ١٨]، وقارنها بجملة يؤلِّفها استبدل فيها الفعل (يبسط) بالاسم (باسط): كلبهم يبسط ذراعيه؛ ليُبيِّنَ مزية مجيء الكلمة المنتقاة كما هي في تركيب الجملة المؤلَّفة. ثمّ ذهبَ يستدلُّ بالاستبدال على الشبه بين ما يتحقَّق باختيار الاسم عند نظم الكلام في كون الاسم مُفهمًا الاتصاف بالشيء دون الحدوث والتجدد مستبدلاً (واحدًا) بـ(باسطٍ) في: (وكلبهم باسطٌ)، و(وكلبهم واحدٌ).

فهذه العملية التي استخدمها الجرجاني عمليةٌ آلية (يفكُّ) من الكلام كلمةً و(يضع) مكانها أخرى ليستدلّ بهذه العملية على صحة ما يذهب إليه، أو ليثبت لغيره تلك الصحة التي يراها.

ويُلحَظُ في صدر كلام الجرجاني في النص السابق أنَّه استعمل عبارة "وإن شئتَ أن تُحسَّ الفرقَ بينهما"، فقال: "تُحسُّ" وهي كلمةٌ يُفهمُ منها التعبير عن ظهور المعنى الذي عبَّر عنه بأنه "يلطفُ" إلى درجة أنه يُصبحُ شيئًا يُمكنُ أن يُدركَ بالحاسَّة (كاللمس أو البصر أو السمع ...)؛ وهذه العبارة (تُحسّ) يمكنُ أن يفهمَ منها أنَّ الجرجانيّ يرى أنَّ استعمالَ هذه الطريقة الآلية الإجرائية يُمكنُ أن تُظهِرَ الفرق اللغويّ المعنويّ اللطيف في صورة محسوسةٍ يُمكنُ إدراكها (والإحساس بها) بوضوح.

(١) الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، مطبعة المدني، جدة، دار المدني، ط٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ص ١٧٤-١٧٥. وانظر أمثلة أخرى استعمل فيها الجرجاني هذا الإجراء الآلي: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٧٦، ١٧٧.

٢- التصرُّف في الرُّتبة بتغيير ترتيب الكلمات في التركيب الذي يتناوله:

٢-١ التصرُّف في الرتبة لدى سيبويه:

تضمَّن النحو العربيُّ فكرة الرتبة الأصلية بين مكونات الجملة العربية، كما تضمَّن محاولة النحاة تحديد هذه الرتبة، ولصاحب هذه الورقة أطروحةٌ علمية عنوانها (نظرية الموضع في كتاب سيبويه) جاء فيها أنّ للمواضع رتبةً أصليةً في البناء التركيبيّ المجرّد للجملة العربية[١]، وقد درس الباحثُ هذه الرتبة في كتاب سيبويه وعرض ما توصَّل إليه فيها[٢]، وتبيّن له في بحثه هنا عند تأمُّله الطرق الآلية التي استخدمها سيبويه في الاستدلال التركيبيّ أنَّ لهذه الطريقة نموذجين مختلفين يمكنُ رصدهما وهما كما يلي:

الأوّل منهما: إعادة ترتيب ما يؤدي الوظائف النحوية في الكلام المؤلَّف ترتيبًا يُطابقُ ترتيبَ المواضع في البناء التركيبيّ المجرَّد للجملة، أي يُطابق ما يرى سيبويه أنه الرتبة الأصلية للوظائف النحوية في تركيب الجملة. وجاء في الأطروحة نفسها أنَّ مجيء ما يؤدي الوظائف النحوية في جملةٍ ما في الكلام المؤلَّف مطابقًا في رتبته الرتبةَ الأصليةَ للمواضع في البناء التركيبيّ المجرّد يؤدي إلى سهولة فهم المراد[٣]؛ لأنَّ مؤلِّف الكلام يكونُ قد شغل المواضع في البناء التركيبي للجملة الأولَ فالأولَ فلم يُحوِج المتلقّي إلى جهدٍ كبير في فهم المراد.

وقد استعمل سيبويه إعادةَ ترتيب ما يؤدي الوظائف النحوية في الجملة المتكلَّم بها بما يطابق رتبةَ المواضع في البناء التركيبيّ المجرّد للجملة العربية، من ذلك قوله: "هذا بابُ ما يُثنّى فيه المستقرُّ توكيداً وليست تثنيتُه بالتي تمنعُ الرفعَ حالَه قبلَ التثنية، ولا النصبَ ما كانَ عليه قبلَ أن يُثنّى، وذلك قولك: فيها زيدٌ قائمًا فيها،

(١) انظر: مخطوط أطروحة الدكتوراه (نظرية الموضع في كتاب سيبويه) ص ٨٢ وما بعدها.

(٢) انظر: مخطوط أطروحة الدكتوراه (نظرية الموضع في كتاب سيبويه) ص ١١٤ وما بعدها.

(٣) انظر: مخطوط أطروحة الدكتوراه (نظرية الموضع في كتاب سيبويه) ص ١٩٤ وما بعدها.

فإنَّما انتصَبَ (قائمٌ) باستغناء زيدٍ بفيها... فإنْ أردتَ أن تُلغيَ (فيها) قلتَ: فيها زيدٌ قائمٌ فيها، كأنَّه قالَ: زيدٌ قائمٌ فيها فيها"(١). إذ يُبيّنُ سيبويه في هذا النص أنَّ رفعَ (قائم) في جملة (فيها زيدٌ قائمٌ فيها) بأنَّه أدى وظيفة خبر المبتدأ، ولأنَّ الوحدة اللغوية من الجار والمجرور (فيها) المتقدِّمة في أول الكلام يُمكنُ أن تؤدي هذه الوظيفة (خبر المبتدأ) لو أراد مؤلِّفُ الكلام ذلك المعنى، وتَقَدُّمُ الجار والمجرور (فيها) يُمكنُ أن يُشتت ذهنَ المتلقّي حين يسمعُ منذ بداية الجملة (فيها زيدٌ...) فيتوهمُ أنَّ (فيها) أدت وظيفة خبر المبتدأ، وأنَّ (زيداً) أدى وظيفة المبتدأ بتقديم الخبر وتأخير المبتدأ، فتكونُ وظيفتا المبتدأ والخبر في الجملة الاسميّة قد شُغِلَتا، وتكون الكلمات اللاحقة إما كلمات في جملة جديدة، وإما كلمات تؤدي وظائف اسمية محتملة في تركيب الجملة المبدوء بها (فيها زيدٌ...)، ويريدُ سيبويه أن يلغيَ كلَّ هذه الاحتمالات ويُبيِّنَ أنَّ الاسم (قائم) هو الذي يؤدي وظيفة خبر المبتدأ؛ فيُعيدُ ترتيبَ الكلام بما يتطابقُ مع الرتبة الأصلية للوظائف النحوية في البناء التركيبيّ المجرّد للجملة الاسمية: [مبتدأ] وهو زيد، و[خبر] وهو قائمٌ، ويؤخِّرُ الوحدة اللغوية (فيها) إلى آخر الكلام ليزولَ توهُّم كونها خبرًا، وذلك في قوله في آخر النص المقتبَس: "كأنه قالَ: زيدٌ قائمٌ فيها فيها"، وهو بتصرفه هذا في إعادة ترتيب الكلمات الواردة في الجملة يتصرَّف في الرتبة ليُبيِّنَ بدقّة صحة رفع الاسم (قائم) في الجملة التي يُحلِّلها؛ لأنها أدى وظيفة خبر المبتدأ وحمه الرفع.

والنموذج الآخر: أن يقومَ سيبويه بتغيير ترتيب ما يؤدي الوظائف النحوية ترتيبًا لا يتطابقُ مع الرتبة الأصلية عندَه؛ لبيان أنَّ المعنى المراد يختلّ بالترتيب الجديد، وأنَّ المعنى المراد يتَّضح ببقاء ترتيب الكلام كما هو. وقد استعملَ سيبويه

(١) سيبويه، الكتاب، ٢: ١٢٥.

هذه الطريقة لبيان أنَّ الوظائف النحوية المشغولة في الجملة المستعمَلة إنّما تكونُ صحيحةً بناء على مراد المتكلِّم بالترتيب الذي جاء به المتكلِّمُ في كلامه، فإذا غُيِّرَ الترتيب اختلَّ المعنى المراد؛ لأنَّ الترتيب الجديد قد يوهِمُ بتغيُّر الوظائف النحوية التي تؤديها الأسماء في تركيب الجملة الأصلية كما تكلَّم بها صاحبها قبل أن يتصرَّفَ النحويُّ بتغيير الترتيب. من ذلك قوله: "ومما يُبطِلُ القلبَ قوله: زيدٌ أخو عبدِ اللهِ مجنونٌ به، إذا جعلت الأخ صفةً والجنونَ من زيدٍ بأخيه؛ لأنَّه لا يستقيمُ: زيدٌ مجنونٌ به أخو عبدِ الله"(١). إذ يؤدي الاسمُ (أخو) وظيفة النعت، ويؤدي الاسمُ (مجنون) وظيفة الخبر في الترتيب الأصلي للجملة التي ألَّفَها المتكلّمُ بناء على مراده هو.

أمّا في الجملة التي غيّر سيبويه فيها ترتيبَ ما يؤدي تلك الوظائف فقد أوقع هذا التغييرُ في تغيُّر المعنى المراد بسبب تغيُّر الترتيب، ولم يعد مراد المتكلِّم واضحًا؛ إذ يوهِمُ الترتيب الجديد أنَّ أخا عبد الله شخصٌ غير زيدٍ، وأنَّ الجنون واقعٌ منه بزيد، وبهذا استدل سيبويه على صحة تحليله. وجاء في شرح السيرافي في إعراب الجملة التي أوردها سيبويه قبل تغيير الترتيب: "أنَّ زيداً مبتدأ، و(أخو عبد الله) صفتُه، و(مجنونٌ به) خبرُه، ولو قيلَ: زيدٌ مجنونٌ به أخو عبد الله، لم يجُز"(٢)، فلَم يُجِز السيرافيُّ الترتيبَ الجديد لأنّه يُخلُّ بالمعنى المراد بحسَب الوظائف الاسمية التي تؤديها الأسماء الواردة في الجملة كما ألَّفها المتكلِّمُ؛ فاختلال المعنى المراد الذي حصلَ بالتغيير المتعمَّد يُتبينُ به الوظائف النحوية المشغولة في الجملة المؤلَّفة، وأنَّ الإخلال بالترتيب الوارد في الجملة قد يتبعه اختلال في وصول المعنى المراد صحيحًا.

(١) سيبويه، الكتاب، ٢: ٥٢.

(٢) السيرافي، شرح كتاب سيبويه، المخطوط، ٢: ١٨٠ أ.

٢- ٢ التصرُّف في الرتبة لدى الجرجاني:

استخدم الجرجاني هذه الطريقة في الاستدلال، وذلك بتغيير الترتيب الذي جاءت عليه الكلمات في التركيب؛ ليُبيِّنَ أنَّ المزية في نظم الكلام الذي يتناوله بالتحليل كانت له بتركيبه حسب ترتيب الكلمات التي جاءت فيه كما هي، من ذلك قوله في بيان مزية النظم في الأبيات:

فلـو إذ نبا دهرٌ وأنكرَ صاحبٌ وسُلِّط أعداءٌ وغابَ نصيرُ

تكونُ عن الأهواز داري بنجوةٍ ولكنْ مقاديرٌ جرت وأمورُ

...

قال: "فإنّك ترى ما ترى من الرونق والطلاوة، ومن الحسن والحلاوة، ثم تتفقّد السبب في ذلك، فتجده إنما كانَ من أجل تقديمه الظرف الذي هو (إذ نبا) على عامله الذي هو (تكونُ)، وأن لم يقل: فلو تكون عن الأهواز داري بنجوةٍ إذ نبا دهرٌ..."(١).

ومن ذلك أيضًا قوله في بيان مزية النظم في قول الشاعر:

سالت عليه شعاب الحي حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

قال: "فإنّك ترى هذه الاستعارة، على لطفها وغرابتها، إنما تمَّ لها الحسنُ وانتهى إلى حيثُ انتهى بما توخِّي في وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد مَلُحت ولَطُفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها. وإن شَكَكت فاعمد إلى الجارَّين والظرف فأزل كلاً منها عن مكانه الذي وضعه الشاعرُ فيه، فقل: سالت شعابُ الحيِّ بوجوهٍ كالدنانير عليه حين دعا أنصارَه، ثم انظر كيف يكون الحالُ، وكيف يذهبُ الحُسن والحلاوة، وكيفَ تُعدَمُ أريحيتُك التي كانت، وكيف تذهبُ النشوةُ التي كنت تجدها"(٢).

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٨٦.

(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٩٩.

وسأضع التأليفين للكلام الواردين في هذا النص فوق بعضهما كما يلي:

- التأليف الأصلي:

سالت عليه شعابُ الحيّ حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

- التأليف بعد التصرّف فيه:

سالت شعابُ الحيّ بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره

لنجد أنَّ الجرجاني هنالم يزد في الكلام المؤلَّف أيَّ كلمة، بل اكتفى بتغيير ترتيب الكلمات الواردة في الجملة التي يُحلِّلُها؛ لتتبيّن بهذا التغيير مزية الجملة المؤلَّفة بالنظم الذي جاءت عليه كما أنتجها صاحبُها الأصلي. وهذا الفعل نفسه فعله في النص الأول حين تصرَّف في ترتيب الكلام المؤلَّف الذي يحلله. فالطريقة التي استخدمها في النصين واحدة، والنتيجة التي أراد أن يصل إليها واحدة، وهي الاستدلال على مزية الكلام المؤلَّف بالترتيب الذي جاء عليه كما هو، وأنَّ الإخلال بهذا الترتيب (وذلك بتغييره) يخلُّ بتلك المزيّة.

٣- التصرُّفُ في الكلام بإسقاط شيء من عناصره الواردة فيه:

٣-١ إسقاط شيء من عناصر الجملة لدى سيبويه:

من الطرق الآلية التي استعمَلها سيبويه لبيان الوظيفة النحوية إسقاطُ[١] شيءٍ من عناصر الجملة؛ فقد يُسقطُ سيبويه شيئًا من العناصر اللغوية التي أُلفَت منها الجملة التي يُحلِّلُها؛ ليُبيِّنَ بذلك أنَّ اسمًا أو مجموع عناصر لغوية وردت في الجملة قد وقعت في موضعٍ معيّنٍ في البناء التركيبيّ للجملة وأدت وظيفته النحوية في الكلام المؤلَّف. وقد أخذَ هذا الإسقاطُ أشكالاً متعددة: منها إسقاطُ حرفٍ أو مجموعة حروف، ومنها إسقاطُ اسمٍ أو أكثر.

(١) اخترت التعبير بـ(إسقاط) بدلاً من (الحذف) لأنَّ المحذوفَ قد يكونُ في حكم المذكور، لكنَّ الإسقاط هنا يعني تجاهُل المُسقَط وكأنَّه لم يرد في الجملة التي يُحلِّلُها صاحبُ الكتاب، فهو إجراءٌ عمليٌّ آليّ لغرضٍ علميّ.

من ذلك إسقاطُ (إنَّ) في قوله: "وتقولُ: إنَّ اليومَ فيه زيدٌ ذاهبٌ، من قِبَلِ أنَّ (إنَّ) عملَت في (اليوم) فصارَ كقولك: إنَّ عمرًا فيه زيدٌ متكلِّمٌ. ويدلُّك على أنَّ (اليومَ) قد عملت فيه (إنَّ) أنَّك تقولُ: اليومُ فيه زيدٌ ذاهبٌ، فترفَعُ بالابتداء؛ فكذلك تنصبُ بـ(إنَّ)"(١). ففي هذا النصّ يُبيّنُ سيبويه أنَّ الاسم (اليوم) وقعَ في موضع اسم (إنَّ) في جملة: (إنَّ اليومَ فيه زيدٌ ذاهبٌ)، وذلك بطريقتين: إحداهما مقابلة عناصر هذه الجملة بعناصر جملة أُخرى جاءت على البناء التركيبيّ نفسه، هي: (إنَّ عمرًا فيه زيدٌ متكلِّمٌ)، وسوف يأتي مزيد كلام عن هذه الطريقة. أمَّا الطريقة الثانية التي استعملَها سيبويه فهي أنَّه أسقَطَ (إنَّ) الناسخة، وعاد بالتركيب إلى أصله عنده وهو المبتدأ والخبر في (اليومُ فيه زيدٌ ذاهبٌ)، ليُبينَ بذلك أنَّ الاسم (اليوم) هو الذي يؤدي وظيفة المبتدأ في هذه الجملة التي ورَدَ فيها مرفوعًا؛ وبذلك فهو الذي يؤدي وظيفة اسمِ (إنَّ) في (إنَّ اليومَ فيه زيدٌ ذاهبٌ)؛ لأنَّ الذي يقعُ مبتدأ في الجملة الاسمية هو الذي يقعُ اسمًا لـ(إنَّ) حين تدخلُ على هذه الجملة.

ويبدو أنَّ مما دعا سيبويه إلى إسقاطِ (إنَّ) في هذا النص أنَّ الاسمَ الذي يؤدي وظيفةَ اسمها (اليوم) يدلُّ على الظرفية، ودلالته على الظرفية مع انتصابه في هذا السياق قد يوهِمُ محلِّلَ الجملة بأنَّه يؤدي وظيفة الظرف؛ لأنَّ الحكم الإعرابيّ لاسم إنَّ وللظرف واحدٌ وهو النصب، فلمّا أسقَط سيبويه (إنَّ) وعادَ بالجملة إلى ما هو الأصل عنده، وهو الجملة الاسمية، ارتفعَ الاسمُ (اليومُ) فدلَّ رفعه على أنَّه يؤدي وظيفة المبتدأ، لا الظرف، والذي يؤدي وظيفة المبتدأ في الجملة الاسمية هو الذي يقعُ اسمًا لـ(إنَّ).

ومن أمثلة ذلك أيضًا إسقاطُ سيبويه حرفَ الجر لبيان أنَّ عملَه ظاهريٌّ فقط،

(١) سيبويه، الكتاب، ٢: ١٣٣.

وأنَّ هناك موضعًا في البناء التركيبيّ المجرّد له حكمٌ إعرابيٌّ مختلفٌ عن الجرّ الظاهري وقعَ فيه الاسمُ المجرور بالحرف، فإذا أسقطَ سيبويه حرف الجر ظهرَ حكمُ ذلك الموضع في الاسم الواقع فيه إنْ كان معربًا تظهر فيه علامةُ الإعراب. وقد جاء في الكتاب ما ظاهرُه أنَّ الاسمَ المجرور بحرف جرّ هو الذي في موضعٍ له حكمٌ آخرُ غير الجر الظاهريّ بالحرف إذ قال سيبويه بعدَ أن ذكر تعدي الفعل إلى موضع المفعول به بحرف الجر: "كما أنَّ (مررتُ بزيدٍ) الاسمُ منه في موضع مفعولٍ منصوب"(١)، فجعلَ الاسم وحده في الموضع. كما جاء ما ظاهره أنَّ حرف الجر مع الاسم المجرور به كلاهما في موضعٍ واحد يؤديان وظيفته النحوية في الجملة التي وردا فيها وهو قوله بعد أن ذكر تعدي الفعل إلى المفعول الثاني بحرف الجر في (أبكيتُ قومَك بعضَهم على بعضٍ): "فإنَّما أوصَلتَ الفعلَ إلى الاسمِ بحرف جرٍّ، والكلامُ في موضع اسمٍ منصوب، كما تقولُ: مررتُ على زيدٍ، ومعناه: مررتُ زيداً"(٢)، فجعل الجار والمجرور اللذين عبر عنهما بـ(الكلام) معًا في الموضع.

ومن إسقاط حرف الجر لبيان الموضع قولُه: "إذا قلتَ: مررتُ بزيدٍ، فكأنَّك قلتَ: مررتُ زيداً"(٣). ونقلَ عن الخليل: "ونحو ذلك قولك: خشَّنتُ بصدره، فالصدرُ في موضع نصبٍ، وقد عملتْ الباءُ، ومثلُه: ﴿**قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**﴾ [الإسراء: ٩٦] إنَّما هي: كفى اللهُ، ولكنَّك لمّا أدخَلت الباء عملتْ، والموضعُ موضعُ نصب"(٤). ونقل عن يونس: "وأخبرَنا يونسُ أنَّ من العرب مَنْ يقول: ما من رجلٍ أفضلُ منك، وهل من رجلٍ خيرٌ منك، كأنَّه قال: ما رجلٌ أفضلُ منك، وهل رجلٌ خيرٌ منك"(٥).

(١) سيبويه، الكتاب، ١: ١٥٧.

(٢) سيبويه، الكتاب، ١: ١٥٨.

(٣) سيبويه، الكتاب، ١: ٩٣.

(٤) سيبويه، الكتاب، ١: ٩٢.

(٥) سيبويه، الكتاب، ٢: ٢٧٦.

ففي هذه النصوص الثلاثة كلِّها يعمَدُ النحويُّ إلى إسقاط حرف الجر ليُبيّنَ الموضع الذي وقع فيه الاسم المجرور ظاهريًّا بحرف الجر، وأنَّه لو أُسقِطَ هذا الحرف لبان الموضع الذي وقع فيه الاسم، وظهر حكمُ الموضع فيه، فالمجرور بالحرف في (مررتُ بزيدٍ)، و(خشَّنتُ بصدرِه) في موضع مفعولٍ به وحكمه النصب؛ لذا قال سيبويه: "فكأنَّك قلتَ: مررتُ زيداً" فأسقط حرف الجر لتتبين الوظيفة النحوية التي يؤديها الاسم (زيد) في الجملة التي يُحلِّلُها. كما نقل عن الخليل إسقاطه حرف الجر من (كفى بالله) لتصبح الجملة: كفى اللهُ، وتتبين الوظيفة النحوية التي يؤديها لفظُ الجلالة، وهي وظيفة الفاعل. وكذلك بعد أن نقل عن يونس قول بعض العرب أسقَطَ حرف الجر (مِن) ليبين أنَّ الوظيفة النحوية للاسم المجرور به (رجل) هي (المبتدأ)، فجعلها: (ما رجلٌ أفضلُ منك، وهل رجلٌ خيرٌ منك). وظاهرٌ من النص الأول أنَّ إسقاط حرف الجر ليس خاصًّا بحرف الجر الزائد؛ إذ أسقط سيبويه حرف الجر (الباء) من (مررتُ بزيدٍ)، وهو حرف جرٍّ غير زائد تعدّى به الفعلُ اللازمُ إلى موضع المفعول به(١).

ومن استعمال هذه الآلية الإجرائية أيضًا إسقاطُ الحروف غير العاملة التي يكونُ لها أثرٌ دلاليٌّ في أداء معنى الجملة المؤلَّفَة من دون أي أثر على المواضع المستعملة في البناء التركيبيّ للجملة، ومن دون أي أثرٍ ظاهريٍّ في الكلام المؤلَّف، نحو قوله: "وحدَّثنا يونسُ أنّ بعضَ العرب الموثوق بهم يقولون: ما لي إلا أبوك أحدٌ، فيجعلونَ أحداً بدلاً كما قالوا: ما مررتُ بمثله أحد، فجعلوه بدلاً. وإن شئتَ قلتَ: ما لي إلا أبوك صديقًا، كأنَّك قلتَ: لي أبوك صديقًا"(٢). إذ أسقَطَ سيبويه (ما) و(إلا) من جملة: (ما لي إلا أبوك صديقًا) لتكونَ: (لي أبوك صديقًا)،

(١) وانظر في استعمال هذه الطريقة: سيبويه، الكتاب، ٢: ١٣٠، ٢٩٣، ٣١٥-٣١٦.

(٢) سيبويه، الكتاب، ٢: ٣٣٧.

ويُبين بذلك أنَّ المواضع المستعملة في (ما لي إلا أبوك صديقًا) هي نفسها المستعملة في (لي أبوك صديقًا)، وهي: المبتدأ المؤخَّر، والخبر المقدَّم، والحال؛ وليبين أنَّ (ما) و(إلا) لهما أثر دلالي في الجملة التي وردا فيها دون أي أثرٍ في العناصر المستعملة في الكلام المؤلَّف، أو في الوظائف النحوية المشغولة في ذلك التركيب.

ومن ذلك أيضًا قوله: "هذا بابُ ما يكونُ مبتدأ بعد (إلا)، وذلك قولك: ما مررتُ بأحدٍ إلا زيدٌ خيرٌ منه، كأنك قلت: مررتُ بقومٍ زيدٌ خيرٌ منهم، إلا أنَّك أدخلتَ (إلا) لتجعلَ زيداً خيراً من جميع مَن مررت به. ولو قال: مررتُ بناسٍ زيدٌ خيرٌ منهم؛ لجازَ أن يكونَ قد مرَّ بناسٍ آخرينَ هم خيرٌ من زيد؛ فإنما قالَ: ما مررتُ بأحدٍ إلا زيدٌ خيرٌ منه، ليُخبرَ أنَّه لم يَمرَّ بأحدٍ يفضُلُ زيداً"(١). إذ أسقَطَ سيبويه الحرفين (ما) و(إلا) من الجملة التي يُحلِّلُها؛ ليُبيِّنَ بذلك أنَّ ما بعد إلا لم يقع في موضع المستثنى (المفعول دونه)، بل هو مبتدأ في تركيب جملة اسميّة وقعت في موضع النعت، ونُعت بها الاسمُ النكرةُ الذي قبلَ (إلا) وهو (أحد). وسببُ قيام سيبويه بهذا العمل هو أنَّ البناء التركيبيّ للجملة الكبرى (الفعلية) التي تبدأ بـ(ما مررتُ...) تحتملُ أن يُستعمَلَ فيها موضع المستثنى (المفعول دونه)، فلمَّا جاءت (إلا) أوهَمت باستعمال هذا الموضع، فأسقطها سيبويه ليُبيّن أنَّ الموضع المستعمَلَ بعدَها هو موضع النعت،فهي لم تأت دالةً على استعمال موضع المستثنى بعدها، بل جاءت مع (ما) لغرضٍ دلاليٍّ هو الإحاطة بجميع الممرور بهم (أو حصرُهم) وإدخالهم في النعت الذي نُعت به الاسم النكرة (أحد)، فكلُّ الممرور بهم (زيدٌ خيرٌ منهم)، ولو لم ترد (ما) و(إلا) في تأليف هذه الجملة لتأثر المعنى المراد دونَ أن يتأثر البناءُ التركيبيّ المستعمَل.

ويُمكنُ أن يُعبَّر عن طريقة سيبويه هذه (إسقاط (ما) و(إلا)) في النصين

(١) سيبويه، الكتاب، ٢ : ٣٤٢.

أعلاه بأنّه: تفريغُ الجملة من العناصر المستعْمَلة التي لا تؤدي وظيفة نحوية، وليسَ لهـا أثرٌ ظاهريٌّ في الكلام المؤلَّف من الآثار التي تُفسِّرُها نظرية العامل؛ بل استُعمِلت لوظيفة دلالية.

ومن استعمال هذه الطريقة أيضًا أنَّ سيبويه يُسقِطُ الاسمَ الواقع في موضع الفاعل من الجملة التي يُحلِّلُها، وهي في الغالب جملةٌ فعليةٌ تعدّى فيها الفعلُ بنفسه إلى المفعول به الأوَّل، وتعدّى إلى المفعول الثاني بحرف الجرّ أو بأحد المعدّيات، ثمّ يُعيدُ سيبويه صياغة الجملة بحيثُ تنسحبُ الأسماء الواردةُ فيها إلى المواضع التي فُرّغت بذلك الإسقاط المُفتَعَل مقتربةً باتجاه الفعل في صدر الجملة الفعلية، فيقعُ ما كان مفعولاً به أوّل في الجملة المحكية المُحلَّلَة في موضع الفاعل، ويسقطُ الحرف المُعدَّى به إلى المفعول به الثاني، ويقعُ ما كان مفعولاً به ثانيًا في موضع المفعول به الأول، من ذلك قولُه: "كقولك: أسقطتُ متاعَك بعضَه على بعض، وهو مفعولٌ من قولك: صككتُ الحجَرَين أحدَهما بالآخرِ، فقولك (بالآخر) ليسَ في موضع اسمٍ هو الأوَّل، ولكنَّه في موضع الاسم الآخرِ في قولك: صكَّ الحجرانِ أحدُهما الآخَرَ، ولكنّك أوصلتَ الفعلَ بالباء، كما أنَّ (مررتُ بزيدٍ) الاسم منه في موضع اسمٍ منصوب"(١). ومثلُ ذلك قوله: "وعلى ذلك: دفعتُ الناسَ بعضَهم ببعضٍ، على قولك: دفعَ الناسُ بعضُهم بعضًا"(٢). وقوله: "وأبكيتُ قومَك بعضَهم على بعضٍ... أجريتَه على قولك: بكى قومُك بعضُهم بعضًا، فإنَّما أوصَلتَ الفعلَ إلى الاسمِ بحرف جرٍّ، والكلام في موضع اسمٍ منصوب، كما تقول: مررتُ على زيد، ومعناه: مررتُ زيداً"(٣)، وغير ذلك من الأمثلة المشابِهة.

(١) سيبويه، الكتاب، ١: ١٥٧.

(٢) سيبويه، الكتاب، ١: ١٥٣.

(٣) سيبويه، الكتاب، ١: ١٥٨.

فالجمل الثلاث في النصوص الثلاثة أعلاه جاءت على بناء تركيبيّ من: فعل + [فاعل] + [مفعول به١] + [بدل] +[مضاف إليه] + حرف جر مُعدٍّ إلى [مفعول به٢] .كما يلي: (صككتُ الحجَرَين أحدَهما بالآخرِ)، و(دفعتُ الناسَ بعضَهم ببعضٍ)، و(أبكيتُ قومَك بعضَهم على بعضٍ)، وزاد في الجملة الثالثة استعمال موضع المضاف إليه بعد المفعول به (أبكيتُ قومَكَ). ويُريدُ سيبويه أن يُبيّنَ أنَّ الاسمَ الأخير المجرور في الظاهر بحرف جرٍّ في الجمل الثلاث (بالآخر، ببعض، على بعض) ليس مرتبطًا بالاسم الذي قبله في جملة صغرى مستقلةٍ، ولا هو بدل مثله، بل هو في موضع المفعول به الثاني، لكنّ الجرّ الظاهري بالحرف رُبّما تسبَّبَ في عدم وضوح ذلك، فقامَ سيبويه بإسقاط الفاعل، وإسقاط ما يتعدّى به الفعلُ إلى موضع المفعول به الثاني، فانسَحَب ما كان في موضع المفعول به الأوَّل إلى موضع الفاعل في الجملة الجديدة، وانسحَب ما كان في موضع المفعول به الثاني إلى موضع المفعول به الأول؛ فتبيّنَ أنَّ المجرور بالحرف مفعول به في الجمل التي يُحلِّلُها سيبويه من كونه مفعولاً به في الجمل التي أجرى فيها التغيير. كما يلي في الجمل الثلاث كلّها على الرغم من اختلاف الكلمات المستعملة في تأليف الجملة: فعل + [فاعل]: (صككتُ، دفعتُ، أبكيتُ)، أسقطَ الفاعل المتّصلَ بها، فانسَحب الاسم الواقع في موضع المفعول به الأول في موضع الفاعل كما يلي: (صك الحجران، دفع الناسُ، بكى قومُك، وجاء البدلُ مرفوعًا لأنّه بدل من الفاعل (أحدُهما، بعضُهم، بعضُهم)، ثم [المفعول به]: (الآخرَ، بعضًا، بعضًا)، وبهذا العمل سقط حرف الجر الذي تعدّى به الفعلُ إلى المفعول الثاني، وأخذ الاسمُ حكم الموضع الذي وقع فيه وهو النصبُ فكانت علامة الإعراب مما يدلُّ على الفرق بين البدل والمفعول به في هذه الجمل الثلاث.

ومن استعمال سيبويه هذه الطريقة إسقاطه الضمير الذي يقعُ في موضع مبتدأ

في جملة اسمية تؤدي وظيفة خبرٍ ليُبيّن أنَّ هذا الضمير ليس بضمير فصل، وأنَّه يؤدي وظيفة نحوية هي وظيفة المبتدأ في الجملة الصغرى التي جاء فيها؛ وأنَّه لو أُسقِطَ ما استقام المعنى المراد، بخلاف ضمير الفصل، كقوله: "وإذا قُلتَ: كانَ زيدٌ أنتَ خيرٌ منه، وكنتُ أنا يومئذٍ خيرٌ منك، فليسَ إلا الرفع؛ لأنَّك إنما تفصلُ بالذي تعني به الأوّلَ إذا كانَ ما بعدَ الفصل هو الأوَّل، وكانَ خبرَهُ، ولا يكونُ الفصلُ ما تعني به غيرَه. ألا ترى أنَّك لو أخرَجْتَ (أنتَ) لاستحالَ الكلامُ وتغيَّرَ المعنى، وإذا أخرجتَ (هو) من قولك: كانَ زيدٌ هو خيراً منك، لم يفسد المعنى"(١).

٣-٢ الاستدلال بإسقاط (حذف) اللفظ الوارد في الكلام لدى الجرجاني:

استخدم الجرجاني هذه الطريقة الآلية في الاستدلال لتأكيد صحة ما يراه في نظمٍ ما، من ذلك استدلاله بحذف ما تحصل به المغايرة والتنوّع بعد اسمٍ يحمل في دلالته المعجمية معنى عاما كاسم الجنس أو المصدر، وذلك كقوله بعد أن بيَّن أنَّ المصدر يتنوع بصلته (متعلقاته، أو معمولاته) أو صفته، وهو في ذلك كاسم الجنس الذي يتنوَّعُ بصفته ومخصصاته، قال: "ثمّ إنَّ ههنا أصلاً هو كالمتفرّع على هذا الأصل، أو كالنظير له، وهو أنَّ من شأن (المصدَر) أن يُفرَّقَ بالصِّلات كما يُفرَّق بالصفات، ومعنى هذا الكلام أنّك تقول: (الضّربُ)، فتراه جنسًا واحداً، فإذا قلت: (الضربُ بالسيف)، صار بتعديتك له إلى السيف نوعًا مخصوصًا. ألا تراك تقولُ: (الضربُ بالسيف غيرُ الضرب بالعصا)، تريد أنهما نوعان مختلفان، وأنّ اجتماعهما في اسم (الضرب) لا يوجبُ اتفاقهما؛ لأنَّ الصلة قد فصلت بينهما وفرَّقتهما. ومن المثال البيّن على ذلك قولُ المتنبي:

وتوهَّموا اللعبَ الوغى، والطعنُ في الـ هيجاء غيرُ الطعن في الميدانِ

(١) سيبويه، الكتاب، ٢: ٣٩٤-٣٩٥. وانظر نصوصًا أخرى استعمل فيها سيبويه هذه الطريقة الآلية (إسقاط عنصر لغويّ أو أكثر): سيبويه، الكتاب، ١: ١٥٠، ٢: ٣١٦، ٣: ١٣٢، ٢: ٣٣١.

لولا أنَّ اختلافَ صلة المصدر تقتضي اختلافه في نفسه، وأن يحدُث فيه انقسامٌ وتنوُّع لما كان لهذا الكلام معنى، ولكان في الاستحالة كقولك: (والطعنُ غيرُ الطعن). فقد بانَ إذن أنه إنما كان كلُّ واحدٍ من الطعنين جنسًا برأسه غيرَ الآخر بأن كان هذا في الهيجاء، وذاك في الميدان. وهذا الحكمُ في كلّ شيءٍ تعدّى إليه المصدرُ وتعلَّق به"(١). إذ أسقطَ الجرجاني صلة المصدر التي حصل بها التنوع في معناه (في قوله: "كقولك: والطعنُ غير الطعن")؛ ليُثبتَ أنَّ هذا التنوع زال بزوال ما يتبيَّنُ به.

ويُلحَظُ هنا أن الجرجاني يستدلُّ بالطريقة الآلية نفسها التي استدل بها سيبويه (إسقاط عنصر أو مجموع عناصر من الكلام المؤلَّف)؛ ولكن الجرجاني يستدلُّ بها ليُثبت اختلاف المعنى بوجود ذلك العنصر أو مجموع تلك العناصر، وأن ذلك الاختلاف في المعنى يتلاشى بإسقاط ما يحصل به.

ومن أمثلة استخدام الجرجاني هذه الطريقة أيضًا قوله مستدلاً على تسويغ عدم مجيء واو الحال مع الجملة الواقعة حالاً، وذلك حين تكون جملة الحال حالا ثانية بعد حال أولى مفردة: "وشبيهٌ بهذا أنك ترى الجملةَ قد جاءت حالاً بعقب مفردٍ؛ فلطُفَ مكانُها، ولو أنك أردتَ أن تجعلها حالاً من غير أن يتقدمها ذلك المفرد لم يحسُن، مثال ذلك قول ابن الروميّ:

والله يبقيك لنا سالمًا بُرداك تبجيلٌ وتعظيمُ

فقوله: (برداك تبجيل)، في موضع حال ثانيةٍ، ولو أنك أسقطت (سالمًا) من البيت فقلت: (والله يبقيك برداك تبجيلُ)، لم يكن شيئًا"(٢). فالجرجاني (يُسقط) الكلمة (سالمًا) من النص، ويُعبِّر عن هذا الإجراء بـ(أسقطت) ليُبيّن

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٩٣-١٩٤.

(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٢١١-٢١٢. وانظر أمثلة أخرى استعمل فيها الجرجاني هذا الإجراء الآلي: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٢٧٣-٢٧٤.

الفرق بين البيتِ كما جاءَ والعبارة التي صاغها هو مسقطًا الحال المفردة (سالمًا)؛ ليُبيّن أثر وجودها في الكلام بحذفها منه، وأنه لم يعد هناك ما يسوّغ مجيء الجملة حالا من دون واو الحال سابقة لها.

طرق استخدمها سيبويه:

١- المقابلة بين عناصر جملتين جاءتا على البناء التركيبِيّ المجرَّد نفسه:

استخدم سيبويه طرقًا أخرى لتعرُّف الوظيفة النحوية، أو لتبيينها، وهي طرق آلية أيضًا لم أقف على استخدام الجرجاني لها، منها أن سيبويه كان يُقابلُ الجملة التي يُحلِّلُها بجملة أخرى جاءت فيها عناصر لغوية غير التي في الجملة التي يُحلِّلُها، لكنَّ البناء التركيبِيّ المجرّد للجملتين واحد أو قريب من أن يكون واحدا، والوظائفُ النحويةُ التي تؤديها الأسماء في تركيب الجملتين اللتين يُقابل سيبويه إحداهما بالأخرى واحدة.

من ذلك قولُه: "وتقولُ: قد جرَّبتُك فوجدتُك أنتَ أنتَ، فـ(أنتَ) الأولى مبتدأة، والثانية مبنيةٌ عليها، كأنَّك قلتَ: فوجدتُك وجهُك طليقٌ. والمعنى أنّك أردت أن تقولَ: فوجدتُك أنت الذي أعرفُ... ومثلُ ذلك: أنتَ أنتَ ...كما تقولُ: الناسُ الناسُ، أي الناسُ بكلّ مكانٍ وعلى كل حالٍ كما تعرف"(١). إذ يُقابلُ سيبويه بين عناصر لغوية في جملٍ جاءت على بناءٍ تركيبيٍّ واحد، وهو البناء التركيبِيّ للجملة الاسمية المكوَّن من [المبتدأ] و[الخبر]، فـ(أنت) الأولى من (أنت أنت)، و(الوجهُ) في (وجهُك طليقٌ)، و(الناسُ) الأولى في (الناسُ الناسُ) أسماء وقعت في موضع المبتدأ من البناء التركيبِيّ المجرّد للجملة الاسمية، و(أنت) الثانية، و(طليقٌ)، و(الناسُ) الثانية أسماءُ وقعت في موضع الخبر من البناء التركيبِيّ المجرّد للجملة الاسمية؛ فالبناء التركيبِيّ المجرّد للجملة واحدٌ،

(١) سيبويه، الكتاب، ٢ : ٣٥٩.

والأسماء المختلفة التي يُقابلُ سيبويه بعضَها ببعضٍ في تأليف الجمل الثلاث المختلفة تشترِكُ في الوقوع في الموضع نفسه. وبهذه المقابلة يتبيّنُ الموضع الذي يُريدُ سيبويه أن يُبيّن أنَّ اسمًا ما أو مجموع عناصر لغوية وقعت فيه.

ولمزيد بيان الطريقة الآلية هذه أضع الجمل الثلاث التي يقابل سيبويه بين عناصرها بعضَها تحت بعض لتتبيَّن الطريقة:

[أنت] [أنت]

[وجهُ]ك [طليقٌ]

[الناسُ] [الناسُ]

والنتيجةُ أنَّ سيبويه أراد أن يبيّن أنَّ الوظائف النحوية التي تؤديها الأسماء الواردة في الجمل الثلاث التي يقابل بين عناصرها هي: [المبتدأ] و [الخبر]

[أنت] [أنت]

[وجهُ]ك [طليقٌ]

[الناسُ] [الناسُ]

ثم يُفسِّرُ بعد ذلك المعنى المقصود في هذه الجمل.

ومن استخدام سيبويه هذه الطريقة أيضًا قوله: "فإذا قلتَ: كم جريبًا أرضُكَ؟ فأرضُك مرتفعةٌ بـ(كَمْ)؛ لأنَّها مبتدأةٌ، و(الأرضُ) مبنيّةٌ عليها، وانتصَبَ (الجريب) لأنَّه ليسَ بمبنيٍّ على مبتدأ، ولا مبتدأ، ولا وصف، فكأنَّك قلت: عشرونَ درهمًا خيرٌ من عشرة"(١). إذ (عشرون) في الموضع نفسه لـ(كم) وهو المبتدأ، و(درهمًا) في الموضع نفسه الذي وقع فيه (جريبًا) وهو التمييز، و(خيرٌ) في الموضع نفسه الذي وقعت فيه (الأرضُ) وهو خبر المبتدأ. وإذا وضعنا الاستعمالين تحت البناء التركيبي المتفق الذي يقابل سيبويه بعضه ببعض لبيان

(١) سيبويه، الكتاب، ٢: ١٦٠.

الوظيفة النحوية كانت بهذه الصورة:

[مبتدأ] [تمييز] [خبر]

[كم] [جريبًا] [أرضُ] ك

[عشرون] [درهمًا] [خيرٌ] من عشرة

وسيبويه بهذه الطريقة يجعل الوظيفة النحوية للأسماء التي يتحدّث عنها ظاهرةً تمام الظهور.

ومن استخدامه هذه الطريقة أيضًا قوله: "وتقول: إنَّ اليومَ فيه زيدٌ ذاهبٌ، من قِبَل أنَّ (إنَّ) عملت في اليوم، فصار كقولك: إنَّ عمرًا فيه زيدٌ متكلِّمٌ"(١). إذ يُقابل بين عناصر الجملتين: (إنَّ اليوم فيه زيدٌ ذاهبٌ)، و(إنَّ عمرًا فيه زيدٌ متكلِّمٌ) ليُبيِّنَ أنَّ المواضع التي وقعت فيها هذه العناصر في البناء التركيبيّ المجرّد للجملة واحدة على الرغم من الاختلاف في الأسماء الواقعة فيها في الكلام المؤلَّف.

ومنه قوله: "وإذا قالَ: عبدُ الله نِعمَ الرجلُ، فهو بمنزلة: عبدُ الله ذهبَ أخوهُ"(٢). وقوله: "قولُك: يومُ الجمعةِ قمتُ فيه، وأقلُّ يومٍ لا ألقاك فيه، وأقلُّ يومٍ لا أصومُ فيه، وخطيئةُ يومٍ لا أصيدُ فيه، ومكانُكم قمتُ فيه، فصارت هذه الأحرفُ ترتفعُ بالابتداء كارتفاع عبد الله، وصار ما بعدها مبنيًّا عليها كبناء الفعل على الاسم الأوَّل، فكأنَّك قلتَ: يومُ الجمعة مباركٌ، ومكانُكم حسنٌ، وصارَ الفعلُ في موضع هذا"(٣). وغير ذلك من النصوص(٤).

ويُلحظُ أنَّ هناك شبهًا بين الطريقتين (الاستبدال) و(المقابلة بين عناصر جملتين جاءتا على البناء التركيبيّ المجرّد نفسه) من حيثُ المجيء بعناصر لغوية مغايرة تقع

(١) سيبويه، الكتاب، ٢: ١٣٣.

(٢) سيبويه، الكتاب، ٢: ١٧٦.

(٣) سيبويه، الكتاب، ١: ٨٤.

(٤) انظر: سيبويه، الكتاب، ١: ٩٣، ١١٧، ١٥٦-١٥٧، ١٧٨، ٢٢٩، ٣: ١٣٥-١٣٦، ١٦٠.

في الموضع نفسه وتؤدي الوظيفة النحوية نفسها، والفرقُ بينهما أنَّ الاستبدال يكونُ بإزالة اسمٍ مفرد أو مجموع عناصر لغوية تشكِّلُ وحدة لغويّة واحدة تؤدي وظيفة نحوية واحدة في البناء التركيبيّ المجرّد للجملة التي وردت فيها كما يؤديها اسمٌ مفرد، ووضع اسمٍ مفرد في مكان ما أُزيل، وتبقى بقية عناصر الجملة كما هي. أمَّا المقابلة فتكونُ بالمجيء بجملة جديدة مختلفة عن الجملة التي يُحلِّلُها سيبويه من حيثُ الكلمات الواردة فيها، لكنّها مثلها في البناء التركيبيّ المجرّد الذي بُنيَت عليه، ثم المقابلة بين تركيب الجملتين أو مجموع الجمل المتفقة تركيبًا والمختلفة عناصرَ.

٢- إدخالُ زيادة في الجملة تساعد على بيان الوظيفة النحوية:

كما استعمَلَ سيبويه إسقاطَ شيءٍ من العناصر المؤلِّفة للجملة لبيان الموضع استعملَ إدخالَ شيءٍ من العناصر لم يُستعمَل في الجملة المؤلَّفة للإفادة منه في بيان الموضع. من ذلك قولُه: "لو قلتَ: فيها عبدُ الله، حسُنَ السكوتُ وكان كلامًا مستقيمًا، كما حسن واستغنى في قولك: هذا عبدُ الله. وتقولُ: عبدُ الله فيها، فيصيرُ كقولك: عبدُ الله أخوك. إلا أنَّ عبد الله يرتفعُ مقدَّمًا كان أو مؤخَّرًا بالابتداء. ويدلُّك على ذلك أنَّك تقولُ: إنَّ فيها زيدًا، فيصيرُ كقولك: إنَّ زيدًا فيها"(١). إذ أدخلَ سيبويه الحرف الناسخ (إنَّ) ليستدلَّ به على أنَّ العلم المرفوع في الجملة التي يُحلِّلُها (فيها زيد، أو عبد الله فيها) وقعَ في موضع المبتدأ من بناءٍ تركيبيٍّ لجملةٍ اسمية، سواء تقدَّمَ العلَمُ في اللفظ أو تأخَّر، ووجهُ استدلاله هنا هو أنَّ الاسم الذي يقعُ في موضع المبتدأ في تركيب الجملة الاسمية هو الذي يقعُ في موضع اسم (إنَّ) في الجملة التي تردُ فيها (إنّ). وقد كان للحكم الإعرابيّ لموضع اسمِ إنَّ (وهو النصب) أثرُه الظاهر في المساعدة على ذلك؛ إذ إنَّ نصب الاسم

(١) سيبويه، الكتاب، ٢: ٢٨٨.

(زيد) في (إنَّ فيها زيداً) زاد في قوة الاستدلال على الموضع الذي شغل هذا الاسم وظيفته في الجملة المؤلَّفة التي يحلِّلها سيبويه وهو المبتدأ؛ لأن الذي يقع اسماً لإن عند دخولها على جملة اسمية هو الذي يؤدي وظيفة المبتدأ.

ويؤيّدُ هذا الفهمَ (أعني أنَّ هذه الطريقة كانت طريقةَ استدلال على الموضع) قولُ السيرافيّ في شرحه: "مذهبُ سيبويه أنَّ الاسمَ يرتفعُ بالابتداء أخَّرتَ الظرف أو قدَّمته. وقال الكوفيون: إذا تقدّم الظرفُ ارتفعَ الاسمُ بضميرٍ له مرفوع في الظرف المتأخّر. فكان من حُجَّة سيبويه في ذلك أنّا إذا أدخلنا (إنَّ) نصبنا الاسمَ وإن كانَ قبله ظرفٌ، كقولنا: إنَّ في الدارِ زيداً، فلو كان (في الدار) يرفعُ زيداً قبلَ دخول إنَّ لما غيَّرتها (إنَّ) عن العمل"(١).

٣- المجيء بمُعادلٍ تتبينُ به الوظيفة النحوية:

استعمَلَ سيبويه ما يُمكنُ أن يُطلقَ عليه: المجيء بمعادلٍ يبين به الموضع المستعمَل في تركيب الجملة، وذلك في مجيئه بهمزة التعدية في الفعل مبيّناً بها أنَّ تعدي الفعل اللازم بحرف الجر إلى موضع المفعول به في تركيب الجملة الفعلية يُعادل تعدّيه بالهمزة أو بالتضعيف ووصوله إلى المفعول به بواسطة أحدهما، وذلك في قوله بعدَ أن ذكر تعدّي الفعل اللازم بالهمزة أو بالتضعيف: "وعلى ذلك: دفَعتُ الناسَ بعضَهم ببعضٍ، على قولك: دفعَ الناسُ بعضُهم بعضاً. ودخول الباء ههنا بمنزلة قولك: ألزمتُ، كأنَّك قلتَ في التمثيل: أدفَعْتُ، كما أنَّك تقولُ: ذهبتَ به من عندنا، وأذهبتَه من عندنا، وأخرجته معك، وخرجت به معك"(٢). إذ يُبيّنُ سيبويه بالمثال في هذا النصّ أنَّ تعدي الفعل إلى مفعول به بحرف الجر يُعادلُ تعديه بهمزة التعدية بعد أن جاء في أوّل النص ما يُفهمُ منه أنَّ التعدي

(١) السيرافي، شرح كتاب سيبويه، المخطوط، ٢: ١٩٨ب.

(٢) سيبويه، الكتاب، ١: ١٥٣.

بحرف الجر كالتعدي بالهمزة أو التضعيف، وهو قوله: "وعلى ذلك..."، بعد أن ذكر قبله التعدية بالهمزة أو التضعيف.

ويظهرُ من قول سيبويه: "وعلى ذلك: دفَعتُ الناسَ بعضَهم ببعضٍ، على قولك: دفعَ الناسُ بعضُهم بعضًا. ودخول الباء ههنا بمنزلة قولك: ألزمتُ، كأنَّك قلتَ في التمثيل: أدفَعْتُ" ما يؤكِّدُ أنَّه يستعملُ هذه الطريقة بوصفها طريقةً آليّة إجرائية يُبيّنُ بها الموضع، إذ يذكرُ أنَّ تعدي الفعل (دفع) إلى المفعول به الثاني بحرف الجر (الباء) في: (دفعتُ الناسَ بعضَهم ببعضٍ) كتعدّيه بالهمزة، ثم يذكرُ أنَّ المتكلِّم (كأنَّه قال في التمثيل): أدفعتُ، وهذه التعدية للفعل (دفع) بالهمزة غير معتادة في الاستعمال اللغوي الحقيقي، لذلك قال سيبويه: (كأنَّك قلت في التمثيل)؛ أي على افتراض أنّك قلتَ: أدفَعتُ. إذ يُصرِّحُ سيبويه أحيانًا بأنَّ ما يجيء به من التصرُّف بالكلام (تمثيلٌ لا يُتكلَّمُ به)؛ أي أنَّه هو الذي تصرّف فيه تصرّفًا ما بغرض التبيين.

٤- إضافةُ سمةٍ إلى اسمٍ مُختَلَفٍ في وظيفته النحوية للاستدلال على الوظيفة أو لبيانها:

استعملَ سيبويه هذه الطريقةَ لإثبات أنَّ الاسم الجامد (بسر) و(رُطَب) و(تمر) واقعة في موضع الحال في نحو (هذا بُسرًا أطيبُ منه رُطَبًا) لا في موضع خبر كانَ، قال: "هذا بابُ ما ينتَصِبُ من الأسماءِ والصفات لأنَّها أحوالٌ تقعُ فيها الأمورُ، وذلك قولك: هذا بُسرًا أطيبُ منه رُطَبًا. فإن شئتَ جَعَلتَهُ حينًا قد مضى، وإن شئت جعلته حينًا مُستَقْبَلاً. وإنّما قالَ الناسُ هذا منصوبٌ على إضمار (إذا كانَ) فيما يُستقبل، و(إذ كانَ) فيما مضى؛ لأنَّ هذا لمّا كانَ ذا معناه أشبَه عندَهم أن ينتصِبَ على (إذا كانَ). ولو كانَ على إضمار (كانَ) لقلت: هذا التمرَ أطيبُ منه البسرَ؛ لأنَّ (كانَ) قد ينصِبُ المعرفةَ كما ينصِبُ النكرةَ؛ فليسَ هو على

(كانَ) ولكنَّه حال"(١). إذ يستدلُّ سيبويه على أنَّ (تمرًا) و(بسرًا) لم يقعا في موضع خبر كان المقدَّرة بأنْ يُدخلَ في الاسمين (أل) للتعريف ليُضيف إليهما سمة التعريف، وهي سمةٌ يُمكنُ أن تكون في الاسم الواقع خبرًا لكان دون الاسم الواقع حالاً، وحيثُ لم يصحّ ذلك الاستعمال نفى سيبويه أن تكون (بسرًا) و(تمرًا) و(رطَبًا) واقعةً في موضع خبر كان كما ظنّه بعضُهم، وبقيَ عنده أنَّه منتصبٌ على الحال.

وعلى الرغم من أنّ هذه الطريقة التي استعملها سيبويه معتمدة على دليل يمكن وصفه بأنه لغوي، كما كان ذلك في إدخاله (إنّ) على الجملة الاسمية لبيان كون العلم المتأخر في (فيها زيد) مرتفع بالابتداء يمكن وصفه بأنه دليل لغويٌّ؛ على الرغم من ذلك فإنَّ الإجراء الذي عمله سيبويه هو إجراء فيه تدخلٌ من الدارس نفسه، فهو لم يستدلّ على نصب الاسم (زيد) في (إن فيها زيداً) بأنه اسم (إنّ) في جملة وردت هكذا، بل جاء بـ (إنّ) وأدخلها على جملةٍ لم ترد فيها أصلاً؛ ليستثمر نتيجة هذه العملية في الاستدلال، والعملية التي قام بها هي عملية آلية يمكن استخدامها في كل مرة يُحتاج إليها، وستؤدي النتيجة نفسها بالكفاءة نفسها.

طرق استخدمها الجرجاني:

١- فكّ اللفظ وإخراجه من تركيب الكلام الذي جاء فيه واختباره خارج التركيب:

استعمل الجرجاني هذه الطريقة الآلية الإجرائية ليُبيّنَ أنَّ المزية كانت للفظ بتركيبه مع ما جاء في الاستعمال اللغوي المؤلَّف لا له في ذاته خارج التركيب. من ذلك قوله في قوله تعالى: ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي** ﴾ [هود: ٤٤]: "إن شَكَكت فتأمَّل، هل ترى لفظةً منها بحيثُ لو أُخِذَت من بين أخواتها وأُفرِدَت

(١) سيبويه، الكتاب، ١: ٤٠٠. وانظر نصًا آخر فيه استدلال قريب من هذا: سيبويه، الكتاب، ٢: ٣٩٠.

لأدَّت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل: ابلعي، واعتبرها وحدَها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها"(١)، إذ يُأخذُ الجرجاني عبارة (ابلعي) إلى خارج تركيب الكلام الذي جاءت فيه، ويدعو المطَّلِع على النص إلى تأمل العبارة مستقلةً، ومقارنتها بورودها في تركيب الكلام الذي جاءت فيه؛ ليتبيّن للمطَّلِع أنَّ النظم أضاف للعبارة داخل التركيب من المزيّة ما لم يكن فيها وهي مستقلةٌ خارجَه.

٢- التصرُّف في الوظائف النحوية التركيبية بتغيير البناء التركيبِيّ المستعمل في تأليف الجملة:

استعمل الجرجانيّ هذه الطريقة الآلية، وذلك بتغيير الوظائف النحوية التي تؤديها الأسماءُ الواردة في تركيب الجملة التي يُحلِّلها وينسب الفضل فيها إلى النظم مع الإبقاء على الكلمات نفسِها المستعملةِ في تأليف الكلام، من ذلك قوله في قوله تعالى: ﴿**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**﴾ [مريم: ٤] بعد أن بين رأيه بأن المزية في هذه الجملة ليست للاستعارة وحدها، قال: "يُبين أنّ الشرفَ كان لأنْ سُلِكَ فيه هذا المسلك، وتوخّيَ به هذا المذهب أنْ تدعَ هذا الطريق فيه، وتأخذَ اللفظَ فتُسنِده إلى الشيب صريحًا، فتقول: (اشتعلَ شيبُ الرأسِ)، أو (الشيبُ في الرأس)، ثُمّ تنظر هل تجد ذلك الحسنَ وتلك الفخامةَ؟ وهل ترى تلك الروعة التي كنت تراها؟"(٢)، إذ تحوَّل الجرجاني بتركيب الجملة في الآية الكريمة ﴿**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**﴾ من (فعل + فاعل + تمييز) إلى (فعل + فاعل + مضاف إليه) وهذا التحوُّل بالتركيب صحبه تغييرٌ في الوظائف النحوية التي تؤديها الأسماء الواردة في تركيب الجملة؛ فجعل الشيب فاعلاً بدلا من وقوعه تمييزًا، وجعل الرأس مضافًا إليه بدلاً من وقوعه

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٤٥.

(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٠١. الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١.

فاعلاً، وبعد ذلك دعا متأمل الكلام إلى تأمُّل الفرق بين الجملتين في صورتيهما المختلفتين بطرح السؤال: "هل تجد ذلك الحسنَ وتلك الفخامةَ؟ وهل ترى تلك الروعة التي كنت تراها؟".

وقوله في نص آخر بعد النص السابق: "وأنا أكتب لك شيئًا مما سبيلُ الاستعارة فيه هذا السبيلُ؛ ليستحكم هذا البابُ في نفسك، ولتأنس به.

فمن عجيب ذلك قول بعض الأعراب:

الليلُ داجٍ كنفا جلبابه والبينُ محجورٌ على غرابِه

ليس كل ما ترى من الملاحة لأنْ جعلَ لليل جلبابًا، وحَجَرَ على الغراب، ولكن في أن وَضَعَ الكلامَ الذي ترى، فجعلَ (الليل) مبتدأ، وجعلَ (داج) خبرًا له وفعلاً لما بعده وهو الكنفان، وأضافَ (الجلباب) إلى ضمير الليل، ولأن جعلَ كذلك (البين) مبتدأ، وأجرى محجوراً خبراً عنه، وأن أخرَجَ اللفظ على (مفعول). يُبيّنُ ذلك أنك لو قلت: (وغراب البين محجور عليه، أو قد حُجِرَ على غراب البين) لم تجد له هذه الملاحة، وكذلك لو قلتَ: (قد دجا كنفا جلباب الليل) لم يكن شيئًا"(١).

ويُلحَظُ هنا أنّ الجرجاني قد غيَّر في ترتيب الكلمات الواردة في الجملة لكن هذا التغيير لم يكن هو المقصود في إجرائه الآلي، بل المقصود هو تغيير الوظائف النحوية التركيبية التي تؤديها الأسماء الواردة في الجملة، وقد يكونُ تغيُّر الرتبة لازمًا عند القيام بهذا الإجراء، مع التنبيه إلى كون الرتبة جزءاً أصيلاً في نظرية النظم.

فالتصرُّف في الوظائف النحوية المستعملة في تأليف الجملة وإبقاء الكلمات نفسها المستعملة في الكلام الذي يحلِّله مع تغيير الوظائف النحوية التي تؤديها هو عمليةُ استدلالٍ آلي يمكن القيام بها في كل مرة يرى المحلِّل اللغوي أنه في حاجة

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٠٢-١٠٣. وانظر أمثلة أخرى استعمل فيها الجرجاني هذا الإجراء الآلي: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١.

إليها لبيان صحة ما يذهبُ إليه في تحليل جملةٍ ما.

٣- إعادة المحذوف (ردُّ ما حذفه مؤلِّفُ الكلام إلى الكلام):

جاء في أثناء تبيين الجرجاني أنَّ الحذف سرٌّ إجادةٍ في نصوصٍ يحللها قولُه: "فتأمَّل الآنَ هذه الأبيات كلَّها، واستقرِها واحداً واحداً، وانظر إلى موقعها في نفسك، وإلى ما تجده من اللطف والظَّرف إذا أنت مررتَ بموضع الحذف منها، ثمّ فَلَيْتَ النفسَ عمّا تجد، وألطَفْتَ النظر فيما تُحسُّ به، ثم تكلَّفْ أن تردَّ ما حذفه الشاعر، وأن تخرجه إلى لفظك، وتوقِعه في سمعك؛ فإنّك تعلم أنَّ الذي قلتُ لك كما قلتُ، وأنَّ رُبَّ حذفٍ هو قلادة الجِيد، وقاعدةُ التجويد..."(١).

وبعد هذا النص الذي يُمكن اعتباره مقدمة نظرية لهذه الآلية الإجرائية أخذ الجرجاني يُمثِّلُ بأمثلة وشواهد يرى أنَّ فيها حذفًا ليتبيَّن الأثر الجماليّ للحذف بعد أن يردَّ ما يراه محذوفًا، من ذلك قوله: "فمن لطيف ذلك ونادره قول البحتريّ:

لو شئتَ لم تُفسِد سماحةَ حاتمٍ كَرَمًا، ولم تهدم مآثرَ خالدِ

الأصلُ لا محالة: لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها، ثم حذف ذلك من الأول استغناءً بدلالته في الثاني عليه، ثم هو على ما تراه وتعلمه من الحُسْن والغرابة، وهو على ما ذكرتُ لك من أنّ الواجب في حُكم البلاغة أن لا يُنطَق بالمحذوف ولا يظهر إلى اللفظ؛ فليس يخفى أنك لو رجعتَ فيه إلى ما هو أصله فقلت: (لو شئتَ أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها)؛ صرتَ إلى كلامٍ غثٍ وإلى شيءٍ يمُجُّه السمعُ، وتعافه النفسُ"(٢).

وقوله وهو يحلِّلُ أبياتًا منها:

(غَضبى، ولا والله يا أهلها، لا أطعمُ البارِدَ أو ترضى):

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٥١.

(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٦٣.

"يقولُه في جاريةٍ كان يحبها، وسُعيَ به إلى أهلها فمنعوها منه. والمقصودُ قوله: (غضبى)، وذلك أنّ التقدير: (هي غضبى)، أو (غضبى هي) لا محالة، ألا ترى أنّك ترى النفسَ كيف تتفادى من إظهار هذا المحذوف، وكيف تأنس إلى إضماره؟ وترى الملاحةَ كيف تذهبُ إن أنت رُمتَ التكلُّمَ به"(١).

فالجرجاني في هذه النصوص يرى أنَّ هناك حذفًا زاد النصَّ جمالاً، ثم يأتي بالمحذوف الذي يقدِّره، فيعيدُ إدخاله في النص الذي يحلِّله صراحةً، فيجعل السامع أمام نصيّن: أحدهما المتكلَّم به بالفعل، والثاني المتصرَّف به بعد الإجراء الآلي الذي قام به العالم اللغويّ، ليظهر بذلك مدى المزية للنص المؤلَّف الأصليّ.

٤- اختبار اختلاف المعنى بمعنى عبارةٍ أخرى:

ومما يُمكنُ أن يعدّ طريقةً آلية إجرائية في الاستدلال مجيء الجرجاني بعبارة أخرى تؤدي معنى العبارة التي يتناولها ليُبيّن بذلك اختلاف المعنى في كلمةٍ واحدة ترد في تركيبين مختلفين. من ذلك قوله مفرِّقًا بين (أل) الجنسية في الاسم الوقع مبتدأ والاسم المماثل الواقع خبرًا: "وأصلٌ آخر، وهو أنَّ من حقِّنا أن نعلمَ أنَّ مذهب الجنسية في الاسم وهو خبرٌ غيرُ مذهبها وهو مبتدأ.

تفسيرُ هذا أنّا وإن قلنا إنّ (اللام) في قولك: (أنت الشجاع) للجنس، كما هو له في قولهم: (الشُّجاعُ موقّى، والجبانُ ملقّى)، فإنّ الفرقَ بينهما عظيمٌ؛ وذلك أنَّ المعنى في قولك: (الشجاعُ موقًّى) أنك تُثبِتُ الوقاية لكلّ ذاتٍ من صفتها الشجاعة، فهو في معنى قولك: (الشُّجعانُ كلُّهم موقَّونَ)... وأمَّا في قولك: (أنت الشجاعُ) فلا معنى فيه للاستغراق، إذ لست تريد أن تقول: (أنت الشجعان كلُّهم)"(٢). أما معنى (أنت الشجاع) فبيّنه الجرجاني بعد طول تحليلٍ

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٥٢. وانظر أمثلة أخرى لهذا الإجراء الآلي: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨.

(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٩٥-١٩٦.

بقوله: "وأما في نحو (أنت الشجاع) فإنك تدَّعي أنه قد انفردَ بحقيقة الشجاعة، وأنه قد أوتي فيها مزية وخاصية لم يؤتها أحدٌ"(١). كما ذكر قبل ذلك "اتفاق الجميع على تفسيرهم له بمعنى (الكامل)"(٢).

فالجرجاني (في هذه الطريقة من طرق الاستدلال) يأتي بعبارة بديلة تؤدي معنى العبارة المستخدمة التي يتناولها بالتحليل؛ ليُثبت بذلك اختلاف معنى كلمةٍ ما في التركيب الذي يتناوله عن معنى كلمةٍ مطابقةٍ لها في اللفظ لكنها وردت في تركيب آخر مختلف، ويستخدمُ العبارة البديلة نفسها للاستدلال على المغايرة، إذ تؤدي العبارة البديلة معنى إحدى العبارتين اللتين يُقيمُ بينهما المقارنة في حين لا تؤدي معنى العبارة الأخرى.

ويُمكنُ تشبيه هذه الطريقة بالتحليل الطبي الذي يُجرى في المختبَر لإثبات كون العينة المُتناولَة التي تُخضَعُ للاختبار موجبة (حاملة لمعنى العبارة البديلة) أو سالبة (غير حاملة لمعنى العبارة البديلة). وهذه العملية، كما يظهر لي، عمليةٌ آليةٌ إجرائيةٌ يمكنُ القيام عند الحاجة إليها حين تكون هي الطريقة المناسبة لبيان وجهة النظر.

وبعدُ، فإنَّ الكشفَ عن إجراءات التحليل، والآلي منها على وجه الخصوص، يكشفُ لنا عن الأدوات التي يُمكنُ وصفها بأنها (آلية) استُخدِمت في الدرس اللغويّ العربيّ التراثيّ، ويتيحُ لنا استخدام هذه الطرق الآلية كما استخدمها الدارس اللغويّ العربي. كما أنه يكشفُ لنا عن مناطق في النظرية اللغوية العربية يُمكنُ أن تُعمِّقَ الفهم لتلك النظرية.

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٩٨.

(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٩٧.

استخدام الطرق الآلية بين سيبويه والجرجاني:

– يُلحَظُ أنَّ سيبويه في نظرية الموضع والجرجاني في نظرية النظم كانا يُباشِران النظرَ في اللغة ويُجريان الدراسة والتحليل على نصوصها مباشرة، فمع أنَّ كلَّ واحد منهما كان ينطلق من مبادئَ نظريةٍ للدراسة والتحليل نجدهما لا يقفان عند الفكرة النظرية، بل يدعمان صحتها بتأكيدها بتحليل نصٍّ أو عدة نصوصٍ لغوية، وكانا يستعملان طرقًا آلية إجرائية للاستدلال ضمن ما يستعملانه أثناء التحليل للاستدلال على صحة ما يذهبان إليه، أو لتوضيحه.

– يُلحَظُ أنَّ بعض الطرق الآلية التي استعملها سيبويه لبيان الموضع كانت تصرُّفًا إضافيًّا منه يُضيفه إلى الجملة التي يُحلِّلُها بزيادة أو نقصٍ أو استبدالٍ، ويمكنُ وصفُ هذه التصرفات الإضافية بأنَّها أدلة صناعية استُعمِلَت أثناء التحليل النحويّ، وهذه التصرفات تُبينُ أنّ التحليل النحوي في الدرس النحوي العربيّ كان في بعض جوانبه (صناعةً). وكذلك يُلحَظُ الأمر نفسه في بعض الطرق الآلية المشابهة التي استعملها الجرجاني (كالنقص من النص الأصلي أو الزيادة فيه أو الاستبدال).

– يُلحَظُ أنَّ كثيرًا من الجمل التي استعمل فيها سيبويه طرقًا آلية لبيان موضعٍ وقع فيه اسمٌ أو مجموع عناصر لغوية كانت بعض العناصر اللغوية المستعملة في تأليف الجملة تحتمل الإعراب الظاهريّ بأكثر من احتمال؛ فيقوم سيبويه باستعمال طريقةٍ آلية ما ليُبيّن بها أنّ الاسم أو مجموع عناصر لغوية واقعة في موضعٍ معيّن، ويلغي بذلك الاحتمالات الأخرى الظاهرية عنده.

– عدد الطرق الآلية الإجرائية التي وقف عليها الباحث لدى سيبويه والجرجاني متطابقٌ، وهو سبع طرق لدى كلٍّ منهما.

– يُلحَظُ أنَّ سيبويه كان مشغولاً بمعرفة الوظيفة النحوية التركيبة في طرقه الآلية

الإجرائية التي استخدمها في الاستدلال التركيبيّ دونَ اهتمام كبير بجمالية النص الذي يُحلِّله، في حين كانت جمالية النص وإعجازه البيانيّ مركز اهتمام الجرجاني في إجراءاته التي استعملها للاستدلال التركيبيّ.

– وعلى الرغم من الملحوظة السابقة وهي الاختلاف بين سيبويه والجرجاني في الغرض من استدلالهما أثناء التحليل نجدهما قد اتفقا في استعمال عددٍ من الطرق الآلية وهي: التصرُّف في الرتبة بتغيير ترتيب الكلمات في التركيب الذي يتناوله، والاستبدال، والاستدلال بإسقاط (حذف) اللفظ الوارد في الكلام؛ وهذا يغري بطرح سؤالٍ مهم: هل تأثر الجرجاني بسيبويه في ذلك؟ أو أنَّ اشتغالهما بالمستوى اللغوي نفسه جعلهما يلتقيان في الطرق الآلية الإجرائية نفسها؟ أو بصيغة أخرى: هل تفرض طبيعة المستوى اللغوي، (التركيبِي) مثلا، على المحلِّل اللغويّ طرقًا معيَّنة في الاستدلال؟

– يُمكنُ أن يُعدَّ من الطرق التي تشابه استخدامها لدى سيبويه والجرجاني الطريقتان التاليتان: (مجيء سيبويه بمُعادِلٍ يبينُ به الموضع)، وهي الطريقة الثالثة المذكورة ضمن الطرق التي كانت لدى سيبويه ولم أقف على استخدام الجرجاني لها، و(اختبار اختلاف المعنى بمعنى عبارةٍ أخرى) وهي الطريقة الرابعة المذكورة ضمن الطرق التي استخدمها الجرجاني ولم أقف على استخدام سيبويه لها؛ أمّا الجهة التي ألحظ فيها الشبهَ فهو أنّ سيبويه استخدم (همزة التعدية أو التضعيف) للاستدلال على الوظيفة النحوية للاسم الذي تعدّى إليه الفعل بحرف جر، وهو استخدام لمعادل يمكن وصفه بأنه وظيفي في التركيب. أمّا الجرجاني فقد استخدم (اختبار اختلاف المعنى بمعنى عبارةٍ أخرى) كما في بيانه الاختلاف المعنوي في الاسم الذي دخلت عليه (أل) الدالة على الجنس إذا وقع مبتدأ وإذا وقع خبرًا وذلك باستعمال عبارة أخرى فيها معنى العموم الذي في اسم الجنس لاختبار هذا

الاختلاف المعنوي والاستدلال على صحة التحليل. وعلى الرغم من أنَّ ظاهر الطريقتين مختلف فإنّ التشابه بينهما من حيث أنّ العملية الإجرائية للاستدلال في الطريقتين يمكنُ أن يُلحَظ، وهو أنَّ العمليتين كلتيهما تقومان على المجيء بمعادل يُختَبَرُ به صحة التحليل، سواء كان المعادل لفظيا كما في استخدام همزة التعدية أو التضعيف، أو كان معنويا كما في مجيء الجرجاني بعبارة (الشجعان كلهم موقون) مقابل (الشجاع موقّى).

– يُلحَظُ أنَّ الجرجاني بعد أن يستعمل طريقةً آلية كان يُحيلُ القارئ إلى فهمه وذائقته؛ ليتأمل القارئ النصَّ ويحكم بنفسه، وقد يكون عمله في معالجة جمالية النص ومعناه السبب في ذلك.

– يُلحَظُ أنَّ معظم استعمالات سيبويه والجرجاني للطرق الآلية في تحليلهما كانت لتأكيد صحة ما يذهبان إليه نظريًّا، وتبيينه للمتلقّي.

– يُمكنُ أن أسجِّل هنا أنّ الاستدلال الآلي يؤدي إلى نتائج دقيقة مهما كان الهدف من استخدامه، وقد اختلف الغرض في استخدام الاستدلال الآلي بين سيبويه والجرجاني ومع ذلك كانت الأدلة الآلية تؤدي إلى نتائج منتظِمة في كل حال. ويبدو لي أن السبب في ذلك هو كون الاستدلال الآلي عملية تشبه العمليات الرياضية التي تؤدي إلى نتائج منتظمة في كل مرة تستخدم فيها.

– بعد الكشف عن الطرق الآلية للاستدلال التركيبي التي استخدمها سيبويه والجرجاني نستطيع أن نقول إن لدينا إحدى عشرة طريقة للاستدلال الآلي التركيبي يمكننا استخدام إحداها عندما نكون أمام حال مشابهة للحال التي استخدمت فيها الطريقة نفسها، وهذه الطرق هي إجمالا:

١– الاستبدال.

٢– التصرف في الرتبة.

٣- التصرُّفُ في الكلام بإسقاط شيء من عناصره الواردة فيه.

٤- المقابلة بين عناصر جملتين جاءتا على البناء التركيبِيّ المجرَّد نفسه.

٥- إدخالُ زيادة في الجملة تساعد على بيان الوظيفة النحوية.

٦- المجيء بمُعادِلٍ تتبينُ به الوظيفة النحوية.

٧- إضافةُ سمةٍ إلى اسمٍ مُختَلَفٍ في وظيفته النحوية للاستدلال على الوظيفة أو لبيانها.

٨- فكّ اللفظ وإخراجه من تركيب الكلام الذي جاء فيه واختباره خارج التركيب مقارنة معه داخل التركيب.

٩- التصرُّف في الوظائف النحوية التركيبية بتغيير البناء التركيبِيّ المستعمل في تأليف الجملة.

١٠- إعادة المحذوف (ردُّ ما حذفه مؤلِّفُ الكلام إلى الكلام).

١١- اختبار اختلاف المعنى بمعنى عبارةٍ أخرى.

وأخيرًا، أحمد الله الذي يسَّرَ هذا العمل، وأسأله تعالى أن ينفع به.

ثبت المصادر والمراجع

* الإشبيلي ، أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي بن عصفور الحضرمي، المقرِّب ومعه مُثُل المقرِّب، تحقيق وتعليق ودراسة: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوَّض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ .
* الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، مطبعة المدني، جدة، دار المدني، ط٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
* سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط ١، د. ت.
* السيرافيّ، أبو سعيد الحسن بن عبد الله، شرح كتاب سيبويه، مخطوطة محفوظة بدار الكتب القومية، رقم ١٣٧ نحو، ش.
* القوزي، عوض، المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، الرياض، جامعة الرياض، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١ م.
* المعيوف، علي بن معيوف بن عبد العزيز، نظرية الموضع في كتاب سيبويه، أطروحة دكتوراه في ١٤٢٩هـ، محفوظة في قسم الرسائل العلمية بمكتبة الأمير سلمان المركزية في جامعة الملك سعود، ومكتبة الملك فهد الوطنية.
* نحلة، محمود أحمد، الاسم والصفة في النحو العربيّ والدراسات الأوربيّة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤م.
* النهج الاستبدالي في كتاب سيبويه، فولفديترش فيشر، دراسات عربية وساميّة مهداة من أصدقائه وتلاميذه بالجامعات المصرية، مركز اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٩٤م.
* ياقوت، محمود سليمان، التراكيب غير الصحيحة نحويًّا في الكتاب لسيبويه دراسة لغوية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الثانية، د. ت.